دعوة الحق

السنة التاسعة - العدد ٩٩ - العام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

من جماليات التصوير في القرآن الكريم

تأليف
محمد قطب عبد العال

تصدرها رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة



بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

القرآن الكريم ، كتاب الله ودستور المسلمين ، كثرت حوله الدراسات وما أوفَتْ . فهو الذخيرة الحية ، والنبع الثر ، بما فيه من عقيدة ، وأحكام وتشريع وأخبار . وبما يتميز به من أداء تعبيرى معجز . فهو المعجزة الكبرى التى تحدى بها محمد ﷺ الأجيال جميعا . إنه حجة الله على الخلق وحجة الرسول فى رسالته . إنه كتاب الله خاطب به أولياءه فعرفوه ، وأولى الألباب فأدركوه . إنه الشريعة ، والمرجع ، والطريق ... إنه النبع الإلهى الذى ينهل منه المسلمون فى كل حين وآن .

والقرآن الكريم ... يجمع بين الهدف الدينى والمطلب الفنى من حيث الجمال فى العرض ، والتنسيق فى الأداء ، والتأثير فى النفس ، مما يستثير كوامن الوجدان ، فتتفتح النفس استعداداً لتلقى المطلب الدينى فى صفاء وجمال وجلال . والتصوير فى القرآن نسيج تعبيرى متفرد ، وهو أحد الملامح الفنية فى الأسلوب القرآنى . هذا الأسلوب الذى اتخذ تفرده من نفس العطاء اللغوى ، فتحدى به الرسول حملة القول وأصحاب اللغة .

قال تعالى ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾[1] .... وما أقدمه يسعى إلى الكشف عن بعض جوانب هذا الأداء التصويرى فى مجالاته المتنوعة ، مع اليقين بأن ما جاء فى الدراسة ليس إلا محاولة قد يكتنفها القصور .

وإننى لأتوجه إلى الله بالثناء والحمد على ماتفضل به علىّ . كما أتوجه بالشكر لكل هؤلاء الكتاب الذين تناولوا هذا الجانب التصويرى فى القرآن الكريم .. فما الماء إلا مجموعة من القطرات النديّة .... والله أسأل أن يتقبل منا .. ويتجاوز عن قصورنا ... وأن يحفظنا بالقرآن ، ويؤنسنا بنوره .

---

(١) الأنعام : ٣٨ .



الفصل الأول
الأداء التعبيري ودلالة الألفاظ

الأداء التعبيرى ودلالة الألفاظ

التصوير هو السمة المميزة فى القرآن الكريم ، وهو أحد الملامح التعبيرية الأساسية فى الأسلوب القرآنى . هذا الأسلوب الذى اتخذ تفرده من نفس العطاء اللغوى الذى عرفه العرب القدماء . فالألفاظ والتراكيب والصياغة النحوية هى ما تواتر فى أصول اللغة .. وهى التى عرفها العرب . معرفة فطرية دقيقة .. ومع ذلك فإن القرآن الكريم تحدى حملة القول وأصحابه بالقول نفسه . فلقد تحداهم بالأداء التعبيرى الفذ .. الذى قصُرت عن إدراكه أقوى العقول وأصفى الألسنة .. فالأسلوب القرآنى .. هو جوهر التحدى وهو رمز المعجزة ووسيلتها وشرفها .. وهو ذو خصوصية متفردة وهو نمط فى الأسلوب الأدبى بلغ حد الاعجاز . ومن ثم كان التأثير النافذ والمتغلغل فى أعماق النفس .

○○○ والأسلوب فى بنائه التعبيرى يعتمد على عناصر كثيرة منها ... الألفاظ ..

والألفاظ فى أسلوب القرآن لها جمالها المميز ، ووقعها النغمى ... وتناسقها الكامل مع المعنى ، وأئتلافها مع دلالات المعانى المصاحبة ... بحيث لا نستطيع أن ننزعها من مكانها ، أو نأتى بمرادف لها ، إنها متماسكة مع أخواتها ، متلاصقة مع رصفائها ، متحدة فى السياق ، ومتمشية مع المعنى والغرض .

إنها كما يقول الجرجانى فى دلائل الاعجاز كل كلمة تقف مع أختها ، ولو حاولت أن تنزع كلمة لتضع مكانها أخرى فى معناها ، ما أئتلف السياق ولا انسجم الأسلوب ..

نرى هذا الاتساق فى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل

لكم انفروا فى سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ﴾[1] .... فكلمة (اثَّاقلتم) .. فى أدائها الفنى ، توحى بظلال المعانى المصاحبة « لفعل الكلمة » ... إن نظام الحروف فى الكلمة ينبئ عن المعنى المراد .. فالتشديد والمد والوقف ، يُوحى بالتثاقل الشديد .. وكأنما حركة الفعل تتجه إلى أسفل .. الأرض ، فى الوقت الذى كان يجب أن تتجه فيه إلى الأعلى . مفارقة الأرض ... وكأنما بين هؤلاء والأرض خيط غليظ يربطهم بها ... فلا يستطيعون أن ينفكوا منه .

وهى فى نفس الدلالة توضح نفسية بعض المسلمين حين دعاهم الرسول ﷺ إلى غزو الروم ... فكشفت عن المتثاقلين ، المتباطئين فى تلبية النداء . ولقد وردت المفردة (اثّاقلتم) فى سياق تعبيرى يرفد المعنى المراد ويكشف خبايا النفس .. فثمة استفهام فى الآية الكريمة ، خرج عن معناه الحقيقىّ إلى معنى بلاغى ... هذا المعنى يراد به التقريع والتوبيخ .. ومعنى هذا أن ثمة فعلا مذموماً ، استدعى أن تقوم الآية بتوبيخ ما مُوَجّه إلى المؤمنين ... ولاشك أن كلمة (اثّاقلتم) توضح لنا هذا السبب ، وتكشف لنا الفعل الذميم الذى استدعى توبيخهم .. إنه لفعل جسيم .. إن التباطؤ عن الدعوة .. جرم لايغتفر .. والنكوص عن الغزو فعل أدانته الآية .. ومن ثم كانت مفردة (اثاقلتم) هى المفردة المتلائمة مع المعنى ، وإذا نزعناها أو أتينا بكلمة مترادفة فى المعنى معها .. ما كان للسياق من تأثير ، وما كان هناك ارتباط بين الاستفهام التقريعى ودلالة الفعل المجرَّم .. وما انكشفت لنا هذه الظلال ، من المعانى المصاحبة للكلمة . وهى إذا كانت تحمل التقريع ... فهى تحمل العتاب .... وفى كل الحالات فهى كشف لجوانب نفسية غائرة فى نفوس المسلمين الذين تباطئوا فى الدعوة إلى الجهاد وغزو الروم .

---

(١) التوبة ٣٨ .

ثم نجد تضافر الكلمات وتناسقها وتآزرها . فكلمة (اثَّاقلتم) ترتبط فنيا ومعنويا ودلاليا ... بعبارة (متاع الحياة الدنيا) فالعبارة تفسير لحركة التثاقل البطيء المشدود إلى الأرض شدًّا .. إنه الميل إلى متاع الدنيا وعرضها .. ونسيان متاع الآخرة ... وورد الاستفهام مرة أخرى ليرفد معنى الاستفهام الأول ويقويه ، فثمة توبيخ وثمة عتاب .. على الموقف الذى وقفه المؤمنون من الغزو .. فما المتاع المستحقر سبب فى النكوص ، وما هو سبب فى التثاقل ، لأنه متاع زائل .. لاقيمة له إذا قيس بمتاع الآخرة .

وعلى هذا فإن كلمة (اثَّاقلتم) جاءت فى الأسلوب القرآنى متفردة متميزة من حيث البناء الصوتى ومن حيث المعنى ، ومن حيث ظلال المعانى المصاحبة ... مما يؤكد على أن المفردة القرآنية ... لا تغنى عنها مفردة لغوية أخرى ... فهى محكومة بالبناء القرآنى ... ودلالته التعبيرية ... المتفردة فى تآلف منسجم .

وتآلف المفردات لايأتى فقط من ناحية النسق والجرس الصوتى ، بل يشمل كما رأينا ، التآلف فى المعانى ، والتماسك .. فى البناء ، والتأثير بالمعانى المتداعية ... وهذا التآخى والتآلف والتماسك فى الألفاظ والمعانى واضح فى كل آيات القرآن الكريم .. فمعنى كل لفظ يمهد لمعنى اللفظ الآخر ... فلا تنافر فى الألفاظ ولا تنافر فى المعانى ... ومن ثم ينساب الأداء القرآنى فى النفس كالماء المترقرق العذب .

ولنأخذ نموذجاً آخر على تفرد المفردة القرآنية .

قال تعالى : ﴿ **وإذ نجيناكم منْ آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم** ﴾[2] والآية القرآنية تذكير لنعم الله سبحانه وتعالى على بنى اسرائيل ،

---

(٢) البقرة ٤٩ .

حيث نجاهم الله من بطش فرعون وأهله ، فقد كانوا يلاقون أشد العذاب وأفظعه ، من ذبح الأبناء من الذكور واستخدام الإناث للخدمة والعمل ... فرفع الله عنهم هذا البلاء المهين .. وتلك نعمة يجب على بنى اسرائيل أن يذكروها دائماً .. ولقد عكست الألفاظ القرآنية المهانة التى كان عليها بنو اسرائيل . وجاءت الألفاظ متضافرة مع رصفائها ، بحيث نعجز عن الاتيان بمرادف لها . لأن المرادف هنا ، لفظ بشرى ، وهو لفظ قاصر مهما أوتى من فصاحة وبلاغة .. ففى كلمة « يسومون » نجد المدّ الذى يوحى بالاستمرار والتواصل .. فالنطق الصوتى يستغرق زمنا طويلا نسبيا ، مما يعكس حالة العذاب التى طالت على بنى اسرائيل .. وهى من حيث الترادف اللفظى .. فإننا نعجز عن إتيان كلمة تؤدى نفس المعنى ، ونفس الدلالات المصاحبة لها .. فكلمة مثل (يذيقون) أو كلمة (يولون) .. لاتحمل دلالة المعنى فى المفردة القرآنية .. فهى تعنى شدة الظلم وقسوة الخسف ببنى اسرائيل ومداومة العذاب .. ولذلك فمجيئها فى النسق القرآنى دليل على مالقيه بنواسرائيل من عذاب شديد ومهانة ذليلة على يد فرعون .. وكأنهم مطالبون دوماً به .. ومن ثم تضافر المعنى تضافراً تاماً مع مفردة (سوء العذاب) ...

ويرى الزمخشرى فى هذا الموقف (ومعنى سوء العذاب .. والعذاب كله سيىء – أشده وأفظعه ، كأنه قبَّحه بالإضافة إلى سائره ...)[٣] وكلمة « سام » تؤدى إلى دلالة المعنى فى سوء العذاب وتعلو بها إلى بيان ألوان العذاب الشديد ... مما تبرزه الألفاظ الأخرى .. فكلمة (يذبِّحون) ... جاءت بياناً لكلمة « يسومون » و « سوء العذاب » ولابد أن تتضمن قوة هذا العذاب الدائم المستمر ... وشدته .. فجاء التشديد دلالة على المراد ...

---

(٣) الكشاف جـ١ ص ٦٨ .

وورود الكلمة (يُذَبّحُ) يعنى إسناد الفعل لإرادة العمل ، والإصرار عليه بخلاف لو غيرنا الضبط لتصبح (يَذْبَحُ) .. هنا تحمل الكلمة معنى الذبح الخاص بفاعل الفعل بحيث تنتفى فيه إرادة الفعل والإصرار عليه وانسحابه على الغير بكثرة .. ومن ثم تصبح مفردة « يذبّحون » عاكسة لتاريخ الفعل نفسه والخاص ببنى اسرائيل أو اليهود فى مصر فى ظل فرعون .. حيث إن الكهنة أنذروا فرعون بأن مولوداً سيولد وسيكون فى مولده هلاكه ... ومن ثم تصبح الكلمة جامعة .. للسياق اللفظى والتاريخى معا ... وتأتى مفردة [يَسْتحيون] لتكشف جانبا آخر من البلاء .. فثمة قتل وثمة حياة ... ولكن الحياة هنا لاتقل بشاعة عن القتل .. إنها الحياة الذليلة التى تحول النساء من كريمات شريفات إلى خادمات .. مملوكات رقَبَةً وعِرْضاً ، مما توحى به أشد الإيحاء على مدى الهوان والذلة التى عاش فى ظلالها اليهود فى مصر ...

إن اللفظ المفرد له بلاغته الخاصة فى إطار الأسلوب ... والائتلاف بين الألفاظ والمعانى واضح فى كل الآيات القرآنية .. فنحن لانجد إلا التوحّد والتكامل بحيث تمهد الكلمة الطريق إلى معنى الكلمة التالية .. فى انسجام كامل .. فلا تنافر فى المعانى ، ولا تنافر فى الألفاظ .

ومن جماليات الأداء القرآنى ذلك الاتساق والائتلاف الكاملين .. فنحن فى قراءة القرآن نواجه بذلك اللحن السماوى المتنوع المتجدد فى آن واحد .. فيبدو الجمال اللغوى ماثلاً له وجوده وأثره البيّن فى النفوس .

(إن دقة التعبير القرآنى ومتانة نظمه ، وعجيب تصرفه . يؤدى المعنى الثرىّ فى اللفظ القَاصِد النقى) .. ولنأخذ نموذجا من قوله تعالى فى سورة البقرة :

قال تعالى ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمِن بما أُنزل علينا** ،

ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدّقا لما معهم قل : فلم تقتلون أنبياءَ الله منْ قبل إنْ كنتم مؤمنين﴾[٤]

إن الآية الكريمة تكشف عن طبيعة اليهود التى تتميز بالحقد والحسد وترتمى فى نطاق التعصب الشديد . فنحن هنا أمام عنادهم تجاه الإسلام . فهم لايؤمنون بالقرآن والإسلام ، متذرعين بأن ماأنزل إليهم فيه الكفاية ، وأنه الحق . والقرآن الكريم يعجب من هذا الموقف المعاند .. فهم قد كفروا من قبل بأنبيائهم وما جاءوا به ، وأنهم كثيراً ما قتلوا أنبياءهم : والآية القرآنية جزء من قصة بنى اسرائيل .. وموقفهم من الإسلام .. حيث تتداعى الآيات بعد ذلك بقص حكاية موسى عليه السلام معهم ..

والأداء التعبيرى فى الآية يتضمن أنساقاً مختلفة . فثمة دعوة ناصحة لليهود إلى الإيمان بالقرآن ، ثم إجابتهم على هذه الدعوة بما تنطوى عليه من عناد ومغالطة .. وأخيراً الرد الملائم على إجابتهم بما يفحمهم ويرد عليهم محاجتهم .

وأول ما نلاحظه هو الإيجاز الكامل .. والقصد اللفظى الواضح ، والذى يحمل كثيراً من المعانى والدلالات . فعبارة (آمنوا بما أنزل الله) .. حملت معانى كثيرة ، واستخدمت الكناية دون اللجوء إلى التصريح .. إن الدعوة إلى الإيمان بالقرآن مرتبطة بما يردده اليهود من أنهم آمنوا بالتوراة . والقرآن أنزله الله على محمد كما أنزل التوراة على موسى . فلماذا الإيمان فى جانب والكفر فى جانب آخر ؟ وعبارة « بما أنزل الله » تعنى القرآن .. كما تعنى محمداً ﷺ وهو جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة .

إن تلك الاشارة إلى القرآن وهذا الحذف الخاص بمحمد ، يعنى أن الاسلام

---

(٤) البقرة ٩١ .

له طابعه الخاص وهو (أنه ليس دين تفريق وخصومه .. بل هو جامعٌ ما فرقه الناس من الأديان .. داع إلى الإيمان بالكتب كلها على السواء ...) ... كما أن الحذف يدل على أن إلقاء الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضْغانهم ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح)[5] .

ولقد أدى الإيجاز الكامل إلى إبراز هذه الدلالات المصاحبة .. للفظ ... وكلمة (ماوراءه) توضح فى جلاء كامل .. أنهم كما كفروا بالقرآن المنزل على محمد كفروا كذلك بالإنجيل المنزل على عيسى . وكلاهما وراء التوراة .. ولكنهم لم يكفروا بما جاء قبل التوراة من صحف ابراهيم ... مما يؤكد أن استعمال اللفظ فى إيجازه جاء جمعاً مانعاً ...

وتأتى مفردة « الحق » ومفردة (مصدقا) ... لتبينا فى جلاء كامل ... ما تحملانه من معانى وظلال ... فالقرآن حق كما أن التوراة حق .. فكيف يكون الايمان فى جانب (التوراة) كفراً فى جانب آخر (القرآن) ؟ .. إن القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب / التوراة .. فى زمنهم وفى أيديهم .. بل وفيما يدرسونه منه . فهاذا يعتذرون ؟ وأنى يذهبون ؟ ... ولاشك أن كلمة « لما معهم » وَشت بهذا المعنى كله ..

إن كل كلمة كانت (بمثابة حركة تطويق للخصم أتمت فى خطوة واحدة ، وفى غير ماجَلَبَة ولاطنطنة) .. وتنتقل الآية إلى معنى آخر وهو قتل الأنبياء ... ولكن الانتقال جاء بعد أن وضّحت الألفاظ والمفردات الشاهد التاريخى ، والحالة النفسية .. وهذا الانتقال جاء بعد أن استعدت النفس له . إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم ، أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه) ولقد استخدم القرآن كلمة (تقتلون) فى صيغة الفعل

(٥) النبأ العظيم . د. محمد عبدالله دراز ص ١٢٠ .

المضارع لاستمرار دلالة الفعل وحضوره . وكأنما هى تصوير لواقعهم .. الواقع الملوث بالدم . وهكذا ندرك أن القرآن الكريم يستثمر أقل ما يمكن من اللفظ فى توليد أكثر ما يمكن من المعانى ..

إن اللفظ القرآنى يشع جمالا وأداءً ودلالة . وإن (كل كلمة من كلماته تعطى صورة بيانية ، وكل عبارة تجتمع من كلمات لها صورة بيانية تصور المعانى كالصورة الكاملة فى تصويرها ، التى تتكون أجزاؤها من صور وتتجمع من الصور صورة متناسقة)[٦] . ولنأخذ نموذجاً على ذلك :
قال تعالى ﴿ وضرب الله مثَلاً قرية كانت آمنةً مطمئنة يأتيها رزقُها رغداً من كلِّ مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[٧]

والمثل هنا مضروب لتصوير حال مكة وتقريب صورتها فى إطار من التصوير الذى يعطى للصورة إطارها المكانى الدال .. وبحيث تنطبق الدلالة الواردة فى المثل .. على المراد إبرازه ، وهو تصوير الأمن والأمان ورغد العيش فى مكة .. فى جانب من جوانب الصورة . جانب زهوة الحياة وجمالها المتألق واطمئنان النفوس وراحتها .. ولقد عكست الألفاظ هذا الجانب من الصورة / المثل ..

فالآية أسندت الأمان إلى القرية ، مما يشعر بالعموم والشمولية .. كما يعطى للقرية / المادة ، حركة الشعور الذاتى والإحساس الداخلى بالأمان .. فكلمة آمنة : تعنى شيوع الأمن والسلام والابتعاد عن الخوف . إن اختصاص القرية بالأمن يعنى حياة هادئة وادعة يشملها سلام وأمان .. ويتواصل الأداء

---

(٦) القرآن المعجزة الكبرى ص ٩٦ .
(٧) النحل ١١٢ .

التعبيرى القرآنى فى تناسقه الرائع ليوضح الصورة النفسية لأهل القرية الآمنة :
فكلمة « مطمئنة » تعكس لنا هذا الجانب النفسى المتعلق بداخل الإنسان ومشاعره ووجدانه .. فثمة سلام ودعة وأمن واطمئنان قَلْبى .. وفى هذا الجو الآمن الساكن ، يأتى الرزق رغداً هنيئاً .. من مصادره المتنوعة فيضاف إلى الأمن والطمأنينة ، أمن آخر له دخل بالذات ، وهو توفر المئونة والطعام ، بما يجعل القرية سيدة بنفسها ، قوية بما تمتلكه .. هذا هو الجانب الأول من الصورة / المثل ... وهذا الجانب ينطبق على حال مكة تمام الانطباق ، وكل جزئية من الصورة العامة تضاهي جزئية من الصورة المراد التعبير عنها .. والتعبير المثل الحسى أدعى إلى التأثير فى النفس ، وتوضيح الفكرة ، وتوصيل المعنى توصيلاً كاملاً ، يستحوذ على حواس الإنسان ومنافذ إدراكه . إنها حال أشبه شىء بحال مكة (جعل الله فيها البيت .. وجعلها بلدا حراماً .. وأهل مكة ... آمنون مطمئنون . كذلك يأتيهم رزقهم هنيئاً من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل .. مع أنهم فى وادٍ قفر جدب غير ذى زرع ..)[8] .

إن المفردات التى قامت بنقل هذه الصورة الكاملة ، متآلفة فى معانيها ، منسجمة فى تراكيبها ، متناسقة فى نظمها ، وهى فى ذاتها تحمل الأداء التصويرى المشع فتبرز النعم الإلهية التى مَنّ الله بها على ساكنى القرية . مما يستوجب الحمد والشكر ...

ولكن واقع القرية اختلف فبدلاً من الإيمان وشكر الله ، جاء الكفر والجحود بنعمه . وهو الجانب الثانى من الصورة العامة .. الصورة / المثل التى وردت بالآية . ولقد عبرت الألفاظ تعبيراً موحيا عن هذا الجانب ∴ فأوضحت التضاد الذى يكتنف الموقف كله ... ورسمت عن طريق الإيحاء

---

(٨) الظلال جـ ٤ ص ٢١٩٩ .

والدلالة ، الصورة المقابلة فى جانبها المعتم ..

فنجد مفردة (أذاق) تعبر عن الضرر الذى مس نفوسهم ... والألم الذى احتواهم خاصة وأن التقابل جاء فيما يرتبط بالحياة نفسها ، وهو الجوع وافتقاد المئونة .. مما يعنى أن العقاب جاء على قدر فعلهم ، ففى أثناء الأمن والرزق الوفير جنح سكان القرية إلى الغرور ونكران الفضل ، وتصوروا أن ماهم فيه جاء من أنفسهم . فنسوا الله ، فأنساهم أنفسهم .. ولننظر إلى الأداء التصويرى الرائع الذى يشع من كلمة « أذاق » ، لقد جعلت المفردة الألم وأثره ، والضرر وشدته ، فى مقام الطعام المر ، الذى ينفر منه الإنسان بمجرد تذوقه ... إن الصورة التشبيهية ، توحى بقسوة الألم ، وبأن الناس لايملكون إلا أن يتجرعوا الألم ... لافتقاد الأمن والأمان .. إنهم فى مقام المضطرين على مداومة الحياة يتجرع غصص الألم والمعاناة . ويرفد المعنى تعبير بيانى جميل يوضح الإذاقة ، ودلالتها .. ففى عبارة (لباس الجوع والخوف) تجسيد كامل مرئى وملموس لكل من الخوف والجوع .. إنهما - الجوع والخوف - لدوامهما يشبهان اللباس الذى يحيط ويشمل الإنسان .. وكأن هذه الإحاطة لا فكاك منها .. فهى مستمرة ومتجددة معا .. مما يعطى المفردة « أذاق » استمرارية الشعور بالألم والمعاناة .. « فالذوق » أعمق أثراً فى الحس . ويتداخل فى التعبير استجابات الحواس . ويتحول المس من حركة اللمس إلى حركة متغلغلة فى النفس . يقول الزمخشرى (أما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع . عبارة عما يغشى منهم ، ويلابس ، فكأنه قيل ما غشيهم من الجوع والخوف)[9] لقد أوضح التعبير أن الألم مسَّ الجسم وأَمَضَّه بافتقاد الطعام وبسطوة الجوع . كما تغلغل فى النفس بذهاب الأمن وبشدة الخوف ..

---

(٩) الزمخشري جـ ٢ ص ٣٤٦ .

فتضافر التعبير بالإذاقة والتعبير باللباس لتوضيح الصورة التى أصبح عليها سكان القرية بعد أن كفروا وجحدوا أنعم الله ....

واختيار الألفاظ يتناسق مع الموقف المراد التعبير عنه .. مما يساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية .. فكلمة « حرث » مثلاً ، تناسقت تماماً مع دلالة الحالة الزوجية ، ومع الصورة الحسية المادية التى جمعت الموقف كله ، مع إيحاء عفيف يقتضيه المقام .

قال تعالى : ﴿ **نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾ البقرة : ٢٢٣ فاللفظ ، فيه كناية موحية لطيفة عن ملابسات زوجية ، وفيه تصوير دقيق للعلاقة بين الزارع وأرضه والزوج وزوجته فى مجال خاص جداً . وفيه ابراز لنتيجة العلاقة الموحى بها ، فثمة نبت يخرجه الحرث ، ونبت ينتج عن العلاقة الزوجية وفى كليهما عمران وفلاح ..

ونقرأ قوله تعالى ﴿ **وإن منكم لمن ليُبطِّئن** ﴾ .. النساء : ٧٢ فنجد صورة التبطئة مرسومة بثقلها وبطئها وجرسها فى كلمة (ليبطئن) . ولعل التكوين الحرفى للكلمة بما فيه من حركات مشددة ، وحركات تتراوح بين الضم والكسر والفتح ، يعطى الثقل فى النطق والأداء ، مما يعكس الحرف نفسه حركة البطء الشديدة التى يوصف بها هؤلاء المتباطئون .. وترسم صورة دقيقة لتنوع الحركة .. وتعثرها ..

ونقرأ قوله تعالى ﴿ **وهم يَصْطَرِخُون فيها ، ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ..** ﴾ فاطر : ٣٧

فنجد اللفظ ، بما يتضمنه من حروف شديدة .. يصور الحالة تماما .. فالآية وردت فى سورة فاطر لبيان مآل الذين كفروا بربهم فهم فى نار جهنم يتصارخون ، ويستغيثون قائلين ربنا أخرجنا لنعمل صالحاً (ويرى القرطبى :

أى نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل)[10] فلفظة (يصطرخون) يعكس حال الكافرين فى جهنم ، حيث يعلو صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء متماوج من شتى الأرجاء .. إنه صوت المنبوذين وجرس اللفظ نفسه يلقى فى الحس هذه المعانى جميعا . إن الإيقاع الصاخب الذى يوحى به اللفظ يعكس الحالة تماما (كما تلقى إليك ظل الاهمال لهذا الاصطراخ الذى لايجد من يهتم به ، ونلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ . وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصور كلها يكون ذلك فنًّا من التناسق الرفيع)[11]

إن اللفظ القرآنية ، تأتلف مع أصوات الحروف ، وتتّسق معها فى الأداءالموسيقى ، مما يجعلها تشيع قدراً من التأثير الوجدانى الواضح فى النفوس . وربما كانت حركة المفردة فيها ثقل وتراكم صوتى شديد .. مما ينفر من استخدامها لغويا ، ولكنها إذا وردت فى القرآن اتخذت السمت البلاغى المعجز ، وتناسقت مع الأداء التعبيرى الكلى . وحملت المعنى والدلالة حملاً جماليا مؤثراً .. ولقد أدركنا ذلك فيما سبق .. ولكننا سنقف أمام مفردة غريبة ، لم يحسن استخدامها إلا حين وردت فى القرآن الكريم . إنها كلمة (ضيزى) ، فى قوله تعالى (تلك إذن قسمة ضيزى)[12] وسياق المفردة ورد فى الرد على الكفار وتوبيخهم حين ادعوا أن الملائكة بنات الله .. قال تعالى : ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى**﴾ ومفردة « ضيزى » تعنى لغويا .. الجور . والفعل : ضاز أى جار .. واستخدامها نادر وغريب .. كقول الشاعر ..

---

(١٠) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٥٧٨ .

(١١) التصوير الفني ص ٩٢ ــ ٩٣ .

(١٢) النجم ٢٢ .

ضازت بنـو أسد بحكمهـم		إذ يجعلون الرأس كالـذَّنب

وورود الفعل فيه إبهام ، فما بالك بالمفردة نفسها . ولكن الكلمة جاءت منسجمة تماما مع السياق والأداء . فسورة النجم جاءت فى آيات موجزة ، ذات فواصل متكررة على حرف واحد ، مما جعلها مترعة بجو من الإيقاع الشامل ، الذى يحتوى الحرف واللفظ والجملة ، فجاءت الكلمة متناسقة مع هذا الأداء التعبيرى المنغم ، كما جاء متلائمة مع السياق .

يقول الرافعى : « فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها ، الإنكار فى الأولى ، والتهكم فى الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما فى البلاغة .. »[13]

إن جمال القرآن اللغوى ظاهرة اختص بها القرآن فى أدائه التعبيرى والتصويرى فى الحرف والكلمة والعبارة والسورة . ومن شأن هذا الجمال اللغوى والنظام الصوتى أن يسترعي الأسماع ويثير الانتباه ويحرك الوجدان ويمزج بين الدين والفن القولى مزجاً يختلط بمدارك الإنسان ووجداناته .

---

(١٣) انظر كتاب التبيان في علوم القرآن للصابوني ص ١٠٧ .

الفصل الثاني

الترادف والدلالة اللفظية

الترادف والدلالة اللفظية

لعلنا من خلال ما درسناه سابقا ، ندرك أن المفردة القرآنية لها جمالها المميز ووقعها النغمي وتآلفها المعجز مع العبارة والسياق والمعنى المراد .. بحيث نعجز عن إيراد كلمة مرادفة لها ..

وهنا يجب أن ننبه إلى أن قضية الترادف قد شغلت كثيراً من المهتمين بشئون اللغة العربية وسر فصاحتها .. والمرجع في هذا البيان القرآني نفسه . بحيث يجب أن يكون قوله هو الفيصل الحاسم في هذه القضية . فهو يهدي إلى سر الكلمة بحيث لا يقوم مقامها كلمة سواها من التي يُظن أنها مرادفة .

فألفاظ القرآن لا يقوم مقامها لفظ آخر مهما كان فصيحا أو بليغا .. ولقد (شهد التتبع الاستقرائي لألفاظ القرآن في سياقها . أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينة لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر ، في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عدداً قلّ أو كثر من الألفاظ)[1] ولنأخذ نماذج من هذه الألفاظ .

الرؤيا والحلم

فلقد وردت الرؤيا الصادقة فى عدة آيات ، وهو فى ورودها .. لايمكن أن تكون بمعنى الحلم .. لأن الحلم يتسم بالخلط والتشوه .. ومن ثم فمن يرى الترادف بينهما ، يكون قاصراً عن إدراك دلالة الرؤيا فى القرآن ودلالة الحلم أيضا .. ولقد وردت الرؤيا فى مواضع منها ..

قال تعالى فى سورة يوسف :

﴿ ... أفتونى فى رؤيایَ إن كنتم للرؤيا تعبرون ... ﴾[2]

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن د. بنت الشاطىء ص ١٩٨ .

(٢) يوسف آية ٤٣ .

وهى رؤيا الملك ، وهى صادقة الالهام.. قد لايدركها حقيقة ، وقد لايدركها المحيطون به ، الأمر الذى جعلهم يصفونها بأنها « أضغاث أحلام » ولكن يوسف عليه السلام كشف حقيقة هذه الرؤيا الصادقة .. وكان كشفها إحدى معجزاته .. ووسيلة إلى تمكينه فى أرض مصر .

ولقد جاءت الرؤيا مصحوبة بالأنبياء .. ورؤية الأنبياء صادقة ينتفى فيها الخلط والتشويه الذى هو من خصائص الحلم .
قال تعالى فى رؤيا إبراهيم عليه السلام :

﴿ وناديناه أن ياإبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنّا كذلك نجزى المحسنين ﴾(٣)

ورؤيا ابراهيم عليه السلام رؤية قريبة من الوحى . إنها رؤية الإيمان والابتلاء فى حادثة الذبيح اسماعيل عليه السلام . والحكمة فى هذه القصة – كما ورد فى كتب التفسير – أن ابراهيم أتخذه الله خليلا فلما سأل ربَّه الولَد ، ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبة الولد ، فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلّة ، فامتثل أمر ربّه وقدم محبته على محبة ولده . والرؤيا وقصتها تعليم للمؤمنين كيفية الانقياد لله سبحانه انقياداً خالصاً . وقد صدقت الرؤيا .. وفدى الله إسماعيل بذبح عظيم ..

كما وردت الرؤيا فى قصة يوسف .. بل تعتبر هذه الرؤيا التى رآها يوسف محور القصة كلها ، وحولها تشابكت الأحداث .. وتعددت ..
قال تعالى فى سورة يوسف حول رؤيا يوسف ..

﴿ قال يابُنى لا تقصُص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيْداً .. إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾(٤)

---

(٣) الصافات ١٠٤ ـ ١٠٥

(٤) يوسف ٥ .

وإذا كان يوسف عليه السلام – فى بداية القصة – لم يدرك مغزى الرؤيا .. فإن يعقوب عليه السلام قد فهم من رؤيا يوسف أن الله يبلغه مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الداريْن .. ولقد خاف عليه من أخوته ، ومن ثم طلب إليه ألا يقصصْ رؤياه .. ولقد قام بناء القصة فى السورة الكريمة على تحقيق تلك الرؤيا .. ولقد تحققت بعد ضروب من المحن والشدائد مرّ بها يوسف عليه السلام . حتى تمكن فى أرض مصر .. نبيا كريما .

قال تعالى :

﴿ .. وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربّى حقا .. ﴾ جزء من ءاية ١٠٠

فى هذا المجال نذكر ما قال ابن سينا عن الرؤى الصادقة وعن أضغاث الأحلام يقول (إن هناك نوعاً من الأحلام ينشأ من اتصال النفس بالملكوت الأعلى .. حيث تتلقى النفس الإلهام ، ويكون ذلك بمثابة الإنذار أو الإخبار ، بما سيكون وهذه هى الرؤيا الصادقة .. أما الأحلام الناشئة عن الإحساسات البدنية فهى أضغاث أحلام .. أى رؤى كاذبة)(٥)

ومن ثم فإن الرؤيا كما وردت فى القرآن .. تأتى فى مجال الصدق الكامل .. لأن صاحب الرؤية يتسم بشفافية قلبية . يقدر بها وعن طريقها أن يتلقى فى منامه .. نوعاً من الإلهام الذى يجد فى النفس تربة صالحة .. تثمر معانى صادقة تكشف عن أشياء غيبية قد تقع فى المستقبل .. وهى فى هذا الجانب علامة على اصطفاء الشخص صاحب الرؤية .. وفى هذه الحالة نعيد ما قلناه عن أن الرؤيا الصادقة .. جاءت فى مجال الحديث عن الأنبياء .. كما جاءت قليلة عن أشخاص عاديين .. هذا الاختيار النفسى للشخص الذى

---

(٥) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته . أحمد محمد جمال جـ٤ ص ٢٧ .

يتلقى الرؤيا الصادقة يعززه حديث رسول الله ﷺ (الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءً من النبوة .. ومن رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لايتمثل فى صورتى) .

ولعلنا نلاحظ أن مفردة « الصالحة » تكشف معنيين رئيسيين فى هذا المجال . الأول أنها تعنى معنى الصدق ، بحيث تصبح الرؤيا الصادقة .. فالحديث يؤكد على هذا المعنى . والثانى : أن مفردة « الصالحة » تكشف عن النفس المؤمنة الصافية الخالصة من عوالق الدنيا ومفاسدها بحيث تصبح مهيأة لتلقى الألهام كما يراه ابن سينا ..

ويرى ابن خلدون فى تأويل الحديث أن (معناه بيان الفرق بين الاستعداد البشرى العام لمطالعة الحقائق الغيبية فى لمحة تتجرد فيها النفس الناطقة عن المواد الجسمانية بالنوم .. وبين الاستعداد النبوى الخاص لمطالعة تلك الحقائق بالإنسجام عن حالة البشرية إلى حال الملكية عند الوحى فى النوم أو اليقظة .. وإنَّ نسبة ذلك الاستعداد البعيد إلى هذا الاستعداد القريب كنسبة واحدة إلى ستة وأربعين)[٦]

إذن فإن مفردة الرؤيا .. حين وردت فى القرآن فإنهى تعنى الرؤيا الصادقة .. أما الأحلام فإنها تعنى الاضغاث أى الأخلاط والخلط الناتج عن الإحساسات البدنية .. إذن فمفردة الرؤيا جاءت فى الرؤيا الصادقة .. كما وردت فى صيغة الإفراد دلالة على التميز والصفاء .

أما « الحلم » فقد وردت فى مواضع توحى بالخط والتشوش .. ولقد جاء رد المحيطين بعزيز مصر تعليقاً على طلب تفسير رؤياه هكذا .
قال تعالى :

---

(٦) المصدر نفسه ص ٢٨ .

﴿ قالوا أضغاث أحلام ... ﴾

والمعنى أنها أخلاط كاذبة لاحقيقة لها . قال الضَّحاك : أحلام كاذبة .. وسياق ورود كلمة الأحلام فى القرآن ... يعنى الخلط والتشوش .. ومن ثم تصبح الدلالة واحدة ومتكررة ..

قال تعالى عن موقف الكافرين من محمد ﷺ :

﴿ بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بل افتراهُ بل هو شاعر ، فلْيَأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾[7]

والأضغاث بمعنى أخلاط .. وهى جمع مفردها ضغث ، وهى بمعنى الأهاويل التى يراها الإنسان فى منامه . وهذا القول موجه إلى القرآن إذ اعتبره الكافرون أخلاطاً منامية ، وتعددت أوصافهم دلالة على حيرتهم وشكهم . (ولقد حكى القرآن هذه الأقوال لإظهار اضطرابهم وبطلان أقوالهم فهم متحيرون لايستقرون على شىء)[8]

... وهكذا يتضح لنا أنه ليس هناك ترادف بين الرؤيا والحلم .. كما يرى البعض ، وكما تقول المعاجم ، فاستقراء الآيات القرآنية التى وردت فيها المفردتان تؤكد أن دلالة الكلمتين مختلفتان ، وأنه لاترادف بينهما البتَّة .

ومن المفردات التى يظن أن بينها ترادفا كلمتا : الخشية ، والخوف . تقول الدكتور عائشة عبد الرحمن [وعجيب أمر هذا البيان المعجز فى اطراد نسقه ولطف دلالته وباهر أسراره . كل خشية فيه على اختلاف صيغها لاتكون إلا فى الحياة الدنيا لا فى الآخرة . إذ الدنيا هى مجال الابتلاء . وإذا تعلقت الخشية فى القرآن بأمرٍ يُخْشَى ، فإنه الغيب ، والساعة ، واليوم الآخر

---

(٧) الأنبياء ٥ .

(٨) صفوة التفاسير جـ ٢ .

أو العنت والكساد ، والإملاق ، وضياع اليتامى والإرهاق طغياناً وكفراً .
وإذا تعلقت الخشية فى القرآن بذاتٍ لا بأمر فإنها لاتكون إلا الخشية لله وحده دون أى مخلوق ..][9]

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة قال تعالى فى سورة يسٓ ﴿**إنما أُنذر من اتَّبع الذكر وخشى الرحمنَ بالغيب**﴾[10]
فالانذار يفيد وينفع الذى يتصف بخشية الله ... وهو من آمن بالقرآن وأسند الأمر كله لله . وخشيه دون أن يراه .. قال أبو حيان : وخشى الرحمن : أى المتصف بالرحمة ، والرحمة تدعو إلى الرجاء ، لكنه مع علمه برحمته يخشاه جل وعلا خوْفاً من أن يسلبه ما أنعم به عليه .

وقال تعالى : ﴿ .. **ذلك لمن خشى ربَّه** ﴾[11] فالجزاء الحسن من جنات تجرى فيها الأنهار .. إنما جاء نتيجة العمل الصالح .. والخوف من الله وتقوى الله والبعد عن المعاصى .. فالخشية إذن تكون عن يقين صادق بعظمة منْ نخشاه .. أما الخوف .. فقد يحدث بناء عن ضغط أو تسلط أو إرهاب .. ومن ثمَّ تصبح الدلالة متغايرة ، فلا يقوم الترادف بينهما .

ومثل ذلك فى مفردتى .. الخشوع والخضوع ...
فالخشوع نابع من انفعال صادق بجلال من نخشع له .
أما الخضوع فقد يكون نفاقا وتزلفا ، وخوفاً ..

وكلمة الخشوع تأتى لتوضح هذا المعنى .. وترد متسقة فى الآيات الكريمة .. فكل خشوع فى القرآن الكريم فهو لله سبحانه .. ومشتقات

---

(٩) الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٠٩ .
(١٠) يس ١١ .
(١١) البينة ٨ .

الفعل خشع ترد بكثرة فى آيات قرآنية لتوضح حال المؤمنين وتصف طبائعهم ، وإيمانهم ، وتقواهم وطاعتهم .. مما يعكسه لفظ « خشع » حيث هى من ألفاظ القلوب الصافية .

قال تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾[١٢]

ففلاح المؤمنين وسعادتهم إنما هو أثر طيب لما يتصفون به من خشوع لله وتقوى ذلك الخشوع الذى يتملك قلوبهم ويحتوى مشاعرهم فتفيض رقة وعذوبة وصفاء .. وقد فسر ابن عباس الكلمة بالخوف .. عن ابن عباس : خاشعون : خائفون ساكنون أى هم ساكنون متذللون .. فى صلاتهم لجلال الله وعظمته .. فالخشوع درجة أعلى من الخوف وأنقى من الخضوع لأنه شعور صاف نابع من القلب متجه إلى الخالق مباشرة فى رجاء متذلل ... بالرضى والجزاء الحسن .

وإذا جاء الخشوع ليصف الكفار ، فإنما ذلك يعنى ، أن الحدث المحكى إنما يكون فى اليوم الآخر .. وليس فى الحياة الدنيا كما لمسنا فى وصف المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ **.. وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردٍّ من سبيل . وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى** ﴾[١٣] .

فالكافرون حين رأوا العذاب الشديد طلبوا الرجوع إلى الدنيا لهول ما رأوا وخرج الاستفهام إلى غرض بلاغى وهو التمنى .. وهو يعنى الاستحالة مما يبيّن وطأة العذاب ، وهوله على النفوس . ومن ثم فهم يبدون وقد عرضوا

---

(١٢) المؤمنون ١ — ٢ .

(١٣) الشورى ٤٤ — ٤٥ .

على النار فى تضاؤل وصغار ، خائفين متذللين يسارقون النظر خوفاً وفزعاً..
فالخشوع هنا ، حالة وجدانية وصف بها الكافرون فى اليوم الآخر ..

ومن هنا فإن الكلمة القرآنية تأتى فى مكانها بحيث لايمكن أن يحل مكانها كلمة أخرى قد يظن أنها ترادفها .. إذ إنها تحمل الدلالة المعنوية للمفردة حملاً لا تأويل له .. ولا تبديل .

تقول الدكتور عائشة عن خشوع المؤمنين فى الدنيا ، وخشوع الكفار والمجرمين فى الآخرة أن [.. سِرَّهُ البيانى هو أن خشوع الكفار لا يكون إلا بعد أن يأتى اليوم الآخر الذى يوعدون فيخشعوا خوفاً ورهبة وذلة ، على حين يخشع المؤمنون فى الدنيا ، عن صدق وإيمان وتقوى وخشية لله] ..
وهكذا تصبح للمفردات القرآنية أسرارها ودلالاتها .. المميزة .

الفصل الثالث

الصورة البيانية والأداء التصويري القصصي

الصورة البيانية والأداء التصويرى القصصى

والصورة البيانية إحدى جماليات التصوير القرآنى ..
فالبيان وسيلة تصويرية توضح المراد من المعنى ، فى أشكال تصويرية مختلفة .. ولقد تعددت ألوان البيان ، من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية ومجاز .. ولكن هذا التعدد المدرسى .. يقف عند حدود أطراف البيان .. بحيث تقف الصورة ساكنة .. قد يلفها الغموض أحياناً ، أو الوضوح السطحى أحياناً أخرى ، وقد يكتنفها التعقيد فى نواح أخرى ..

أما الصورة البيانية فى القرآن فهى عالم بأكمله .. زاخر بالمعانى والأخيلة والوجدان ، والمشاعر النفسية ، تتحرك الصورة البيانية فى أداء تعبيرى معجز ، ترفدها الحركة ، واللون ، والصوت ، والصورة فى تضافر تام .... ولنأخذ نموذجا للصورة البيانية .... والصورة التى نقدمها تتناول صفة مذمومة وهى الطمع .. وقد وردت فى نسق قصصى . مما أحالها إلى حركة مشخَّصة فاعلة .

قال تعالى :
﴿ إنَّا بلوناهم كما بلَوْنا أصحاب الجنَّة إذْ أقْسَمُوا ليصْرِمُنَّها مُصْبحين . ولايَستثنُون . فطاف عَلَيها طائفٌ من ربّك وهُمْ نائِمون . فأصبحتْ كالصريم . فتنادَوا مُصْبحين . أنْ اغدُوا على حرثكم إنْ كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافَتُون . أنْ لَايدخلنَّها اليوم عليكم مسكين . وغدَوا على حرد قادِرين . فلما رأوها قالوا إنَّا لضالون . بل نحنُ محرُومُون . قال أوسطُهم ألم أقلْ لكم لولا تسبحون . قالوا سُبحان رَبِّنا إنَّا كنَّا ظالمين . فأقبَلَ بعضُهم على بعضٍ يتلاوَمُون . قالوا ياويْلَنا إنَّا كُنَّا طاغين . عسَى ربُّنا أن يُبْدِلنا خيْراً مِنها إنَّا إلى ربنا راغبون . كذلك

العذاب ولعذابُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون .﴾[1]

وسورة القلم مكية ، بل هى من أوائل السور المكية . وفى السورة بيان واضح عن العقيدة . وعن محمد .. فالله يحتضن رسوله والفئة المؤمنة معه ، ويواسيه ويثنى عليه . كما تبرز الآيات القيم الأخلاقية الكريمة ، وتطمئن قلوب المستضعفين ، وتحميهم من جبروت الأعداء والأغنياء من كفار مكة . وتعدهم جنات النعيم ...

والآيات الكريمة تتناول فى إطار الاحتضان والتثبيت والمؤازرة ، قصة أصحاب الجنة . وقد ضربها الله مثلاً لسذاجة التفكير ، وشراهة الطمع وعنفوان البطر بالنعم .. وهى من هذا الجانب انعكاس .. بالمثل . لحالة أغنياء مكة وكفارها من محمد والفئة المؤمنة الضعيفة . وَرَبَطَتْ بين غرور كفار مكة وتيههم بالمال والولد .. وبين قصة أصحاب الجنة .. ليَحدُث التأثير وليصل المعنى المراد إلى هؤلاء المتبطرين بغناهم وعصبيتهم . فعاقبة البطر والطمع وخيمة ، كما أن منع الخير عمن يستحقه ، والاعداء على حقوق الغير ، نتائجه وخيمة أيضا .. وما المال والبنون إلا ابتلاء واختبار ، مثلما أختبر وابتلى أصحاب الجنة بجنتهم .

ومن حيث الإطار القصصى ، فإننا نلمح هذا التفكير البسيط الذى يسيطر على أصحاب الجنة .. إنه تفكير يتسم بالسذاجة .. ومحاولتهم استخلاص الثمر لأنفسهم محاولة بسيطة ، وسلوك يتسم بالسطحية . ولعل هذا يعود إلى نفسية الناس . حيث إن أهل مكة فى بداية الدعوة الأولى لم تكن نفوسهم شديدة التعقيد .. فلاءمت البساطة فى العرض ، بساطة تفكيرهم الجانح إلى العناد .

---

(1) القلم ١٧ — ٣٣ .

وتمضى القصة فى نسق متسلسل ..
لقد عقد أصحاب الجنة عزمهم على أن يجنو الثمار فى بكرة الصباح ، والعيون نائمة ، والسكون مطبق ، وأقسموا ألا يتركوا شيئا للمساكين والمحتاجين . وباتوا ليلهم ، وفكرهم الساذج يشغل وجدانهم ويستحوذ على مشاعرهم .. واطمأنوا لما بيَّتوه .

ولكن الله يدبر أمراً غير الذى يدبرون ... جزاء على بطرهم بالنعمة ومنع الخير عمن يستحقه .. وكانت المفاجأة التى يتوقعونها ... فطاف على الجنة طائفٌ قلع نبْتها وأسقط ثمرها وجفف أوراقها وأعوادها .. فبدت فى العيون كالهشيم اليابس .. لقد حرموا الجنة وما فيها .

ويستيقظون مبكرين ، كل ينادى على الآخر ، فى عجلة من أمرهم ، يودون الحصاد فى غفلة عن الصوت . ويمضون فى سكون وخفوت ، فلا حركة تنبىء عنهم ولا صوت يصدر منهم .. كأنهم أشباح .. وهسيس الصوت الذى لايبين ينفلت من الشفاه المطبقة فى رجفة فِعْل .. يشى بحرمان أى مسكين من دخول الجنة ، أو أخذ شىء من ثمارها ..

وبدا لهم أنهم قادرون على منع العطاء والخير .. وسرعان مافوجئوا بما رأوا .. فلقد رأوا عجبا .. ولم يصدقوا أن الجنة الحافلة بالثمار ، المترعة بالأوراق الخضراء الندية ، الفواحة الزهر .. الجارية الماء .... قد بدت فى عيونهم هشيما تذروه الرياح .. وينفلت من داخلهم صوت الخوف ، الراشح بالدهشة ، الميال إلى عدم التصديق ، المأخوذ بالمفاجأة
– لقد ضللنا ، ما هذه بجنتنا ! أنكون ضللنا الطريق ؟!
ولكن الواقع ينبىء بالحقيقة ، والعين لا تخطىء الرؤية .. فلقد وضح الأمر .. فما أخطأوا الطريق .. ولكنهم أمام الحقيقة ... محرومون مما عقدوا العزم عليه . محرومون من ثمار كانت يانعة ، وحصاد كان وفيراً ..

وفى غمرة الحدث العنيف ، وفى هول المفاجأة يقبل بعضهم على بعض يتلاومون .. ويدور الحديث كاشفا نفوسهم .. وينبرى أوسطهم قائلاً :

– تلك هى جنتكم ، حرمكم الله منها قبل أن تحرموا الفقير المحتاج . ولطالما قلت لكم ، ونبهتكم أن تسبحوا الله ، وتذكروه ، وتحسنوا إلى عبيده .. ليتكم مضيتم فى طريق أبينا الشيخ ، الذى ما حرم يوما مسكينا ولا منع خير الله عن محتاج ..

وفى نبرة واحدة ، خرج الصوت من صدورهم يحمل حزنا عميقا ، وندماً كاويا .. واتجهوا إلى الله .

– تنزهت ياربنا عن كل ظلم ، فما حاق بنا نستحقه ، فلقد ظلمنا أنفسنا بأيدينا .

وبدا كل واحد منهم يلقى بتبعية ماحدث على غيره .. إنهم فى فوضى العتاب .. يهيلون التهم حيثما ترد ، وكأنما يتنصلون من جرم عالق بهم كالعلقة . وكل يلوم الآخر ، على مابيّت من رأى . فما من واحد وقف ليردع الآخر بالفعل عما ينوى ..

وتخف حدة اللوم ، ويدرك الجميع أن العاقبة السيئة جاءت نتيجة الخطيئة الكبيرة التى ارتكبوها .. ويعترف الكل بما فعل .. فلعل فى هذا الاعتراف وسيلة إلى أن يغفر الله لهم .. ويعوضهم عن جنتهم التى بادت ، وضاعت .

– عسى الله أن يبدلنا خيراً منها .. إننا نرغب فى عفوه وغفرانه .

وهكذا فإن العذاب الذى نزل بأصحاب الجنة ، ينزل بغيرهم ، ماداموا يمنعون خير الله ، ويتيهون بما لديهم من مال وبنين .. وسينزل العذاب بقريش ... وليعلم مشركو مكة أنهم قد وقعوا فى بلاء كبلاء

أصحاب الجنة .. وليحذروا بلاء الله يوم القيامة .

ولقد ساق الله هذه الآيات كتجربة من واقع البيئة .. ومما هو متداول بينهم من القصص . فيربط – كما يرى سيد قطب فى الظلال – بين سنته فى الغابرين وسنته فى الحاضرين – ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم ، ويشعر المؤمنين بأن مايرونه على المشركين من كبراء قريش من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه . وسنته أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء . ولقد عبرت الصورة البيانية تعبيراً صادقا عن الحالات المادية والنفسية التى اشتملت عليها القصة .

فنجد فى الصورة البيانية مثالاً للطمع المترسب فى النفس .

قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولايستثنون ﴾ القلم : ١٧ : ١٨

والصورة البيانية هنا تندرج تحت مايسمى بالتشبيه التمثيلى حيث يصبح التشبيه صورة كاملة ، لحال المشبه والمشبه به .. فالصورة البيانية تشبه حال الطاغين من قريش ، المستغنين بالمال والبنين وقد ملأ قلوبهم الطمع مما أدى بهم إلى العناد مع الله ، بحال أصحاب الجنة الذين اغتروا بمالهم وسيطر عليهم الطمع وظنوا أنهم بمالهم قادرون على فعل مايريدون . دون مراعاة لمشيئة الله وما يجريه الله على عباده ...

وجمال التشبيه هنا أنه جاء للتقريب . ذلك لأن حال الكفار أشد عتوا وأبلغ غروراً . والصورة البيانية تكشف الحالة النفسية ، الدالة على تمكن الفعل منهم .. هذا التمكن الذى عكسته أدوات التوكيد فى لفظه [ليصرمنها] .. فضلا عن أن المفردة القرآنية وفّت بالمعنى كاملاً ، فهى أبلغ من حيث الدلالة من المعنى المرادف لها وهو القطع . لأن الصرم قطع من الجذر فهو أقرب إلى القلع . وهذا الحرص والإصرار أنساهم الله ،

وجعلهم متلهفين إلى الفعل . مما أوقعهم فى خطأ الحسبان والتصور .

وثمة صورة بيانية تتضاد مع الصورة الأولى ..

فالصورة الثانية تصور قدر الله الذى حل بهم .. وهو قدر لايفلت الظالمون منه ..

قال تعالى : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ﴾ . القلم : ١٩ ، ٢٠

والطائف السريع قد يكون ريحا صرصراً عاتية . وهو قد تم بأمر الله ... ويوضح التشبيه الحالة التى آلت إليها الجنة . فالأشجار الخضراء ، والأوراق اليانعة ، والثمار الناضجة ، قد تحولت جميعها فى لحظة قدرية عالية إلى أخشاب متراكمة ، فقدت جمالها وثمارها . ولأن الأمر جاء بغتة . فقد وقف التشبيه عند أطرافه الأساسية وهو المشبه والمشبه به ، وأدت « الكاف » دورها فى تصور الذهن للحالة التى آلت إليها الجنة .

ثم صورت الآيات الكريمة صورة الحرص والطمع ومنع الخير عمن يستحقه ، فى صورة نفسية بلغت حد الإعجاز ...

قال تعالى : ﴿ **فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . ان لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين** ﴾[٢] .

فثمة اجتماع على أمر خبيث . ولأنه أمر خبيث ، فلقد اتفقوا عليه فى تخافت وإسرار . ومن ثم تصبح كلمة (يتخافتون) الأداة التصويرية الفاعلة التى تحمل معنى الكناية البلاغية ، لبيان أمرهم النفسي وحرصهم الخبيث . ذلك أن الامتناع عن الخير لايكون إلا بإصرار النفس ، والتفاهم فى سرية ،

---

(٢) القلم : ٢١ ـــ ٢٤ .

والبعد عن الجهر . وتكمل الآية الصورة حين تبين أنهم لايمنعون العطاء فقط عن المحتاج بل يمنعونه من مجرد الاقتراب والدخول .. فى أداء يتضمن النهى المؤكد والإصرار عبر استخدام النفى والتوكيد .

ويرفد المعنى ، ماورد فى الآية الكريمة ﴿**وغدوا على حرد قادرين**﴾[3] فهم قاصدون القطع ، ومانعون الخير . وكلمة « الحرد » تعنى المنع والتشدُّد فيه .

وتأتِى المفاجأة فتنبه القلوب الغافلة والضمائر النائمة .. قال تعالى :

﴿ **فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون** ﴾[4]

فالمفاجأة بالحرمان كانت أشد وقعا . فأصابتهم بالحيرة والضلال . ثم حين تيقنوا من الأمر أحسُّوا بضلال آخر معنوى أشد فتكا فى النفوس وتأثيراً فى القلوب .. وتأكدوا أن الله قد قدَر حرمانهم . وما قدره الله نافذ . وهو مايفيده حرف الاضراب « بل » . وكأنه يُشعر بأنهم قد شعروا بالأسف حين حرموا فضلوا .. ولعل هذا الأسف يكون مدخلا لهم إلى الهداية ..

ومن هذا المنطلق تكون العبارة التى تلفظ بها أوسطهم ﴿**ألم أقل لكم لولا تسبحون** ﴾[5] .. قد أدت المراد منها فى إكمال الصورة . فالاستفهام يتضمن التوبيخ ، وكأنما يوحى بأن صوت الأوسط كان فيه تحذير مما يزمعون على فعله . ولكنهم لم يأبهوا بما قال . فجاء التوبيخ لهم ، على أنهم لم يسبحوا الله ويقدسوه وينزهوه ويعرفوا أنه القادر فوق عباده .

ويأتى الاعتراف المصحوب بالندم والحسرة . قال تعالى :

---

(٣) القلم : ٢٢ .

(٤) القلم : ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) القلم : ٢٨ .

﴿ **قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين .** ﴾[٦]

فلقد أدركوا الغفلة التى وقعوا فيها . فقالوا – كأنما يعلنون إيمانهم – سبحان الله تقدس وتنزه .. لقد رجعوا إلى الله ، ولكنه رجوع ناقص ، فلا يكتمل إلا بالتوبة النصوح .

وبعد حصول الندم واستشعارهم للذنب الذى ارتكبوه ، أقدم بعضهم على بعض فى تلاوم . والتلاوم يعنى أنهم أحسوا بعبء المعصية ينمو فى داخلهم ، فبدا كل منهم يلقى بهذا العبء النفسى على الآخر .. وأدركوا فى النهاية أن السبب وراء ذلك كله هو الطغيان والظلم ، فالطغيان يجعل صاحبه – فى ظنه – قادراً ، ومستغنيا .. مصداقا لقوله تعالى فى سورة العلق : ﴿ **إن الإنسان ليطغى . أنْ رآه استغنى .** ﴾

لقد عادت الضمائر الغافلة ، وبدأ الخوف يدب فى النفوس ، واستشعار إيمانى بدأ ينساب إلى الداخل ... وذلك بعد أن خلعوا رداء الطغيان .. وأقبلوا على الله راغبين فى رضاه وعفوه ﴿ **إنا إلى ربنا راغبون** ﴾[٧] ...

يقول المرحوم الشيخ أبو زهرة :

(نرى فى هذه الآيات الكريمة المصورة لتلك القصة التى تشتمل على العبرة الواضحة ، فيها تتلاق المعانى . وكل معنى يردف لما سبقه ، ومقدم لما يليه فى تآخ بين جزئياته ، وتعانق مع كلياته . كل جزء من الكلام يوعز لما يليه .. وفيها الألفاظ مؤتلفة فى نغم يهز النفس ، وتآلف بين الألفاظ ، مفردة ، وجملا ، وفيها تصوير للنفس الإنسانية حين يدخل إليها الطمع ،

---

(٦) القلم : ٢٩ .

(٧) القلم : ٣٢ .

ومع الطمع الشح ، وإذا سكن الشح قلبا دخل منه الظلم وهضم الحقوق ... ولكى ينجو المؤمن عليه أن يراقب مداخل الشح ... فإن سدّ طرقها .. فقد فاز كما قال تعالى : ﴿ **ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون** ﴾[8] الحشر : ٩

لقد جاء التصوير البيانى والجمال اللفظى والأداء التعبيرى فى تضافر تام ، ليعكس لنا نوعاً من النفوس البشرية طغت بما لديها من مال . ففاجأها الله بقدره ، مفاجأة تستحقها . لعلها ترجع وتعود إلى الطريق السوى . والقصة تتضمن عناصرها الأساسية التى تثير الفكر والوجدان وترسخ القيمة الدينية الرئيسية ، وهى هدف القصة ومغزاها .

فالشخصية هنا نموذج للطامع البخيل . وللغنى الذى أبطره غناه .. وهى فى الشكل الخارجى تبدو متماسكة ، لأنها تتماسك بجاهها ومالها . ولكنها فى الحقيقة ، لا تملك مؤهلات هذا التماسك ، فهى فارغة من الداخل . لاقيمة دينية مترسبة ، ولا خوف من الله ، ولا حساب له .. مما جعل الشخصية فى النهاية تتهاوى .. وتذوب ... أمام القدرة الإلهية .. تلعن نفسها وتندب حظها ، وتستشعر الندم فى كل مافعلت .

والحوار : يكشف لنا فى لمسات فنية سريعة مراحل التحول فى الشخصية من التكتم ، والإصرار ، والتخافت ، والجدل .. مما يعين على فهم الحالات النفسية التى صاحبت الفعل كما صاحبت المشهد الأخير .

كما إن عنصر **المفاجأة** له من التمكن بحيث يقلب الحدث رأساً على عقب . فأفادنا فى التعرف على موقفين : موقف ما قبل المفاجأة . وموقف ما بعد المفاجأة . كما أنها تضمنت **الهدف الدينى** .. وهو أن الله غالب على أمره ... وأن كل شيء بإرادته . وأن المال عارية لايضيف قوة ، ولايسند قلبا فارغاً من الإيمان .

---

(٨) القرآن المعجزة الكبرى ص ١٤٢ .

الفصل الرابع

التصوير الفني

التصوير الفنى

إن الصورة الفنية الجميلة ترتبط ارتباطا لغويا وخياليا بالتعبير الحسي .. وهذا يؤدى إلى تعميق الدلالة وتوضيحها .. ويصبح المعنى غنيا ومؤثراً فى النفس ... وجمال التصوير الفنى ناتج عن تضافر الملكات الذهنية والحسية تضافراً كاملاً . والربط بين الأشياء المتآلفة أو المتنافرة ، يثير العواطف الأخلاقية والمعانى الفكرية .. ومن ثم تصبح الصورة التعبيرية بيانا إشاريا لحقائق الأشياء بما يكتنفها من جماليات فى المعنى والأداء .

والتصوير الفنى وسيلة مميزة ضمن وسائل القرآن الكريم ومنهجه التعبيرى المعجز . والاهتمام بالصفة الحسية غالب فى الصور القرآنية .. مما يعطى للصورة بعداً تجسيميا وثقلاً تخيليا مثيراً للذهن والوجدان . كما أنه يوضح العلاقة بين المعنى المراد إيجازه والتصوير المستعان به .

(إن المادى الحسى والفكرى الوهمى أو الخيالى ، يتعانقان تعانقا ملحاً فى مجال الدلالة الأدبية .. فالدلالة بنية عضوية حية متميزة من حصيلة الأقسام التى يمكن أن تتحلل إليها .. الدلالة الأدبية مجال ..)[1]

والتصوير فى القرآن منهج كامل وطريقة متبعة . لاتخطئها العين ، مما يصبح ظاهرة أدبية لها تميزها وتفردها ومجالها الخاص . إنه يحول الألفاظ والتراكيب إلى صور عامرة بالحياة والحركة .. وإذا ما ألقينا نظرة على مجالات التصوير فإننا ندرك أن الصورة الحسية المؤثرة تتواكب بكثرة فى مناحى مختلفة .. فهى تأتى فى مجال الإدراك العقلى والذهنى المجرد ، كما تأتى لتجسم الحالة الوجدانية . وتصور المشاعر الإنسانية وتشخص الجمادات أناساً يحبون ويعقلون ويحيون .. مما يعطى للصورة الأثر النفسى

---

(١) الصورة الأدبية . د. مصطفى ناصف ص ٥٦ .

كما يعطى للمعنى ، الدلالة المصاحبة للصورة فى إبراز مجسم للمعنى المراد .. ولايقف التصوير الفنى عند حدوده البلاغية المعروفة من تشبيه أو مجاز أو استعارة ، أو غيرها .. وإنما هو يتعدى ذلك كله إلى كلية الصورة التى يرفدها الجرس اللفظى والتآلف الصوتى ، والتطريب النغمى ، وموسيقى السياق كله .. فضلا عن إثارة مجالات الحس والذهن .. عبر ظلال من متممات الصورة ، كالتلوين بِتَماثله وتضاده . والحركة فى علوها وانخفاضها ، وصَخبها وسكونها . والصوت المنبعث من الحروف اللفظية ، أو من حوار الشخصية ، أو من هدوء النغم أو ارتفاعه .. إنه التصوير الحى المنتزع من عالم الأحياء . (تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات ، بالمشاعر والوجدانات . فالمعانى ترسم وهى تتفاعل فى نفوس آدمية حيَّة أو فى مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة)[٢]

ويجب الإشارة إلى أن طريقة الأداء التعبيرى هى المحك الحقيقى فى تصوير المعنى وإخراجه إلى مجال التأثير إخراجاً يعطى فائدة مؤثرة . ومن ثم فإن اختلاف وسائل الأداء وطرائقه يؤدى حتما إلى اختلاف المردود فى تصوير المعنى .. نفسيا وذهنيا .. فالمعانى ترتبط برباط وثيق مع وسيلة الأداء التعبيرى وطريقته .. فاختلاف الأداء يؤدى إلى اختلاف المعنى . (فلن يبرز المعنى الواحد إلا فى صورة واحدة ، فإن تغيرت الصورة تغير المعنى بمقدارها) ... إن طريقة التصوير فى القرآن الكريم هى التى جعلت للمعانى والأغراض والموضوعات القرآنية صورتها التى نراها . وهى صورة تختلف تماما عن .. نقل المعانى فى أداء تجريدى أو صورة ذهنية .. إن المعانى فى هذه الحالة تصل إلى المتلقى فى أداء ذهنى خالٍ من الجمال التعبيرى .. مما يصبح التأثير فيه مرتبطا بدرجة المتلقى العقلية ..

---

(٢) التصوير الفني . سيد قطب ٣٧ .

أما فى الطريقة التصويرية فإنها لاتكتفى بجانب واحد تخاطبه كالأولى وإنما هى تسعى حثيثة إلى مخاطبة الذات ككل .. الحس والوجدان معا . مع القبض على الحالة الذهنية التى تعيش هذه الحالة التصويرية الكلية .. ولاشك أن لهذه الطريقة فى التصوير شأنا فنيا بالغاً [فوظيفة الفن هى إشارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة وإجاشة الحياة الكافية بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه ... وكل ذلك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل][3] ولنضرب بعضاً من النماذج القرآنية يتجلى فيها التصوير الفنى أداة تعبيرية فائقة الجمال ونافذة التأثير ...

ومن النماذج التى وردت كثيراً .. تصوير المعانى الذهنية تصويراً حسيا يجسمها ويشخصها ويجعلها ماثلة للعيان .

قال تعالى :

﴿ مثل الذين كفروا بربِّهم أعمالهم كرمادٍ اشتدَّتْ به الريح فى يوم عاصف لايقدرون مما كَسَبُوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد﴾[4]

السياق فى الآيات يوضح أن الكفار قد استهزأوا برسل ربهم فأعد الله لهم عذاباً ونكالاً شديدين يوم القيامة .. ثم يأتى المثل الذى ضرب فى الآية السابقة لبيان أعمال هؤلاء الكفرة وطبيعتها .. وهباء نتيجتها .. والصورة تبين لنا أن أعمال الكفرة التى عملوها فى حياتهم الدنيوية كمكارم أخلاقية من صلة الأرحام وعتق للرقاب وفداء للأسرى والمال المتصدق وإغاثة الملهوف .. هذه المكارم الأخلاقية التى يبتغون بها الأجر والثواب ... يشبه الرماد التى تعصف به الريح فيصير هباءً منثوراً ... وأهمية الصورة هنا أنها

---

(3) المصدر نفسه ٢٤٢ .

(4) إبراهيم ١٨ .

تبين أن ما قام (على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجهه برماد طيرته الريح العاصف ... فلايرون له أثراً من ثواب كما لايقدّر من الرماد المطيّر فى الريح على شيء)[5] .

إن الصورة الحسية تدور حول الرماد الهش الذى لايصمد أمام قوى الريح العارمة .. فثمة شيء ذهنى ، أو عقلى ، يتمثل فى هذا العمل المعنوى الذى يرجى منه الخير والثواب .. هذا العمل ممتد فى جنباته ، كالكرم ، وصلة الرحم ، والإغاثة .. وهى صفات معنوية جسدها التصوير التشبيهى تجسيداً قوياً .. ولكن التصوير الفنى علا على أطراف التشبيه .. حيث بدت لنا حركة الريح شديدة ومستمرة ، هذا الاستمرار يستفاد من كلمة (عاصف) وهو اسم الفاعل الذى يحمل دلالة الاستمرار ، وكذلك لفظ (اشتدت) حيث توحى بقوة الحركة الفعّالة .. فضلا عما تشير به لفظه (الريح) من دلالات مصاحبة .. ويظل عالقا فى الذهن .. تلك الأعمال المتناثرة فى الجو كالهباء ..

والصورة الحسية فى موضوع الصدقة ، صورة فريدة ومؤثرة ، لقد جلاّها القرآن فى نسق تعبيرى معجز . وأوضح التصوير الفنى بظلاله وإيحاءاته ، جوانب الصورة بحيث بدت الصدقة - كقيمة أخلاقية - مشهداً محسا يخاطب حواس الإنسان ، وله الطابع التخييلى المجسم ... إن ما ورد حول الزكاة والصدقة جاء مرتبطا بتصوير فنى أخاذ ...

قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ، كالذى ينفق ماله رئَاءَ الناس ولايؤمنُ بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفْوان عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صلْداً لايقدرون على شيء مما**

---

(٥) الكشاف للزمخشري ص ٢٩٨ .

كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين ﴾[٦]

لقد نقلت الآية الكريمة معنى الصدقة المصحوبة بالرياء فى صورة حسية متخيلة ، والتخييل هنا قائم على التصور العينى .. ومنتزع من البيئة ، وإمكانية تلمسه وتحسسه ممكن واقعيا .. والسياق القرآنى يتعرض للنظام المالى والاجتماعى فى الإسلام ويظهر وجهة النظر الاسلامية فى هذا الشأن .. وهو نظام يتمثل فى الزكاة المفروضة كما يتمثل فى الصدقات العامة .. فى مجالات الانفاق المختلفة .. ومن هنا فإن السياق يتحدث عن آداب الصدقة وسلوكيات المتصدِّق . بحيث تصبح الصدقة عملاً تهذيبيا تمس معطيها ، وعملا نافعاً لآخذيها وتكافلاً للمجتمع بأسره . ومن أجل ابراز هذه الحقائق جميعها جاء التصوير ناطقا فى مشاهد حية ملموسة يصل تأثيرها إلى الأعماق .. والسياق التاريخى يبرز أن هناك ... من كان ينفق المال كارها أو مرائيا ، أو يتبعه بالمن والأذى . ومن ثم خاض القرآن معركة المال من أجل تخليصه مما يشوبه من سوءات وفساد .. وهى معركة متواصلة مادام الإنسان تتنازعه قوى الخير والشر . إنها معركة (مع الضعف والشح والحرص فى داخل النفس ، ثم هى معركة مع الشر والباطل والضلال والطغيان فى واقع الحياة)[٧]

ولقد جاء الخطاب فى الآية القرآنية إلى المؤمنين ألا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى ورسمت لهم الآية مشهداً غاية فى الروعة والتأثير .. إن المشهد يصور لنا المنفق بماله خاوى القلب من الإيمان ، يملك قلبا قاسيا ، شديد القسوة ، قلبا صلدا صلادة حجر الصنوان نفسه ... وما العمل الطيب فى ظاهره والذى يضع غلالة رقيقة شفافة على القلب القاسى المتيبس ، إلا

(٦) البقرة : ٢٦٤ .

(٧) الظلال جـ ١ ص ٤ــ٣

تراب هش يكسو سطح هذا الحجر الصنوان الصلد الأملس الذى لايكاد يبقى شيئاً عليه .. ويخدع الرائى أن ما عليه من تراب صالح للزرع والإخصاب .. وإنما هو فى الحقيقة خداع بصرى .. كما أن إنفاق المرائى خداع قلبى ، ووفى التصوير الفنى وفاءً منقطع النظير حيث أبرز هذا المعنى المعنوى الداخلى فى مشهد حىّ تراه الحاسة البصرية وتدركه تماماً ..

إن خواء القلب سرعان مايبين ويظهر ، وينكشف هذا المستور الذى حاول المتصدق أن يستره ويخدع به غيره ، ... فها هو المطر يتساقط غزيراً على الحجر الأملس .. ويتلاشى التراب ويضيع ، ويبدو فى مجال الرؤية .. هذا الحجر الصلد فى قساوته .. وحجريته ، وجدْبه .. كما ينكشف القلب فلا ثمر ولا جزاء ولا مثوبة ..

ولقد عكست الألفاظ الدلالات المصاحبة .. فكلمة « المَنّ » كشفت نفسية المرائى وخداعه .. فهو انسان معتد بذاته ، مغرور بماله .. حريص على كسْب الصيْت وعلو المنزلة .. وكان المال هو وسيلته إلى تحقيق هذا المظهر الخارجى ... إنه فى النهاية يعتد بإحسانه على من أحسن إليه .. على سبيل التطاول .. وجاءت الإضافة إلى الناس (رئاء الناس) لتوضيح هذه النفسية المرائية فالصدقة المبذولة ليس الهدف منها الرغبة فى رضى الله وإنما ثناء الناس وذكرهم له دائما بما ينفخ ذاته ، ويكرِّس ذاته المتعالية .. ولعلنا نلاحظ الأصل الأشتقاقي فى كلمة « رئاء » فأصله من الرؤية .. ومن ثم تعكس حرص المرائى على أن يرى الناس ما يفعله .. ثم ننظر إلى دلالة لفظى (الصفوان - الصلد) ... فالأولى تعنى الحجر الأملس .. والثانية تعنى الحجارة الملساء التى لا تبقى ترابها على سطحها ، فلاينبت عليها شيء ... فيشير المعنى اللفظى ، بتصوير القلب فى صلادته ، والعمل فى إحباطه ... إن الصورة الحسية ترفدها الظلال الفنية .. فثمة حركة هادرة تشمل وجهين

من الصورة .. صورة المنفق فى حركته المتعالية الغرور وحركة المطر الشديد الذى يتساقط فيأخذ البصر .. كما تأخذ حركة المرائى العين .. ويتضاد مع الحركة سكون قابع يتسم بالجمود والهمود والبلادة .. فى جوف المرائى قلب ينبض ، ولكنه فى الحقيقة جامد ساكن لخلوه من الإيمان .. فهو معطل لا يتأثر بحركة الفعل .. كما أن حجر الصنوان جامد هامد لايتأثر بحركة المطر ولا يتشرب قطرة واحدة .. ولا تتأثر مسامه بوابل المطر المنهل ..

هذا السكون وتلك الحركة يصنعان محوراً للصورة الفنية . ثم لننظر إلى المشهد فى صورته المحسوسة .. إن الصوت يترامى ويعلو ويطوف بالمكان .. إنه صوت زاعق صاخب كالطبل لافائدة منه .. وإنما يجذب الانتباه .. والصوت المنبعث من المرائى .. والصوت المنبعث من ارتطام الماء بصلادة الحجر يستدعى استخدام حاسة جديدة .. لاستيعابه .. وهى حاسة الرؤية البصرية .. فالرؤية البصرية هدف للمرائى .. ورؤية الحجر الأملس .. هدف للتشبيه .. رؤية تؤثر فى النفس .

ثم انظر إلى تلون المباهاة بالمال .. وإلى هذا اللمعان الذى يعكسه الحجرُ وقد غسل بالمطر .. لتعرف كم هو خادع هذا المنظر فى لونه وشكله الخارجى .. إن التصوير الفنى فى هذا المشهد عكس المعنى تماماً وجسمه ، وتضافرت الألفاظ ودلالاتها ، وتآلفها المعنوى والصوتى ، وطرفا التشبيه ومحوره ، والحركة والصوت ، والبصر وحاسة ، واللون وخداعه .. تضافر ذلك كله لتوضيح المشهد توضيحا كاملاً ، ولابراز المعنى المراد إبرازا .. مؤكداً وعميقاً ..

ويمضى السياق القرآنى ليعقد المقارنة فى مشهد تصويرى حافل بالإثارة والمتعة مشهد يتميز بالنماء والخصوبة .

قال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ، كمثل جنة بربوةٍ أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌّ ، والله بما تعملون بصير ﴾ البقرة ٢٦٥

هذا مشهد تصويرى يتناول بالصورة الجانب المقابل للمشهد السابق ، فهنا يتسيّد الإيمان المشهد كله .. الإيمان الذى يملأ القلب ، إنه القلب المتحرك النابض ، ظاهراً وباطناً ، خلصت إرادة صاحبه لله سبحانه .. فهو ينفق المال ابتغاء مرضاته وهو واثق ثقة المؤمن المطمئن بأن الخير كامن فيه ، لأنه خالص لله ... لايشوبه شيء ، ولايدخله دخَلٌ يفسده .. هذا الخير نام كثير النماء .. هذا القلب الندى الرطب ، النابض إيماناً وخيراً ، مترع بجميع المعانى الجميلة .. تربة صالحة للنماء .. تنزرع فى دمائه حبيبات الخير فتورق أشجاراً محملة بالثمار .. تنفع صاحبه ، وتنفع غيره .

هذا القلب الايمانى .. جنة وارفة الظلال .. هذان محورا الصورة .. ولكن القلب خبىء على الناس .. كيف يبدو الخير فيه ظاهراً مُحَسًّا .. كيف تتبدى النتائج الخيّرة .. للانفاق الطيب الذى يدفعه قلب مؤمن .. عميق الإيمان .. كيف ؟

هنا يتجلى المشهد بأروع ما فيه ...

إنها الجنة الخصبة الجميلة المثيرة .. قائمة فى جمال يأسر العين ويأخذ اللب على ربوة عالية .. تتيه بجمالها وخصوبة تربتها .. يتساقط المطر عليها فتتفتح المسام ليتغلغل إلى الأعماق فيعطى دفقا من الحياة إلى الجذور والساق والأغصان والثمار فيبدو كل شيء زاهيا .. بل إن الرذاذ وحده كاف لحياة خصبة مثمرة لقد أحياه الماء [كما تحيي الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزداد صلته بالله . ويزكو ماله كذلك .. ويضاعف له الله مايشاء ... إنه المشهد الكامل ، المتقابل المناظر ، المنسق الجزئيات ، المعروض بطريقة معجزة التناسق والأداء ، الممثل بمناظره الشاخصة لكل خالجة فى القلب ، المصور

للمشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات والمحسوسات .. الموحى للقلب باختيار الطريق فى يُسر عجيب ..][8]

ولننظر إلى المقابلات الجزئية فى المشهدين ...

فى المشهد الأول كان التراب حفنة صغيرة ، وقشرة ظاهرية تخفى وجه الصفوان الصلد القاسى .. وفى الثانى الجنة الحاوية لجمال طبيعى وافر فوق ربوة عالية تملك رخاوة التربة وخصوبتها ..

والوابل قاسم مشترك فى المشهدين .. لكنه فى الأول كشف الادعاء ، وأظهر الحقيقة وفضح المستور ... فإذا هو حجر أملس لاحياة فيه .. إنه محا ومحق .. الصدقة المتبوعة بالمن والأذى .. وفى الثانى تتلقاه الجنة فاتحة مسامها .. مستقبلة رذاذه فى شوق .. فتنمو وتزدهر وتؤتى بخير الثمار .. إنه أربى وأخصب .. الصدقة الخالصة لله ...

فى الأول كانت النفس فى الحقيقة كالحة خاوية ، فارغة ، منقسمة على نفسها تحيا ظاهراً ، وباطنا .. مختلفين .. وفى الثانى كانت النفس عامرة بالإيمان ، مترعة بالخير ، جاء توجهها لله وحده .. فثبتها سبحانه . وزادها من خيرة ونعمه .. وهكذا .. يوضح المشهد فى صورة حسية متضافرة فى ألفاظها وأجزائها نمطين من انفاق المال .. نمط مدان .. ونمط محبب فيه الخير والبركة .. ولننظر إلى الصلة الرمزية بين النفس البشرية الخيرة وبين التربة .. إنها (حقيقة الأصل الواحد ، وحقيقة الطبيعة الواحدة ، وحقيقة الحياة النابتة فى النفس وفى التربة على السواء . وحقيقة المحق الذى يصيب هذه الحياة فى النفس وفى التربة على السواء ...)

---

(8) الظلال جـ1 ص 309 .

ولننتقل إلى نوع آخر من التصوير .. وهو ...

• تصوير المشاعر والوجدانات ..

قال تعالى :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بيّن قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حُفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾[9]

الآية القرآنية تشير إلى ماحاوله المنافقون واليهود فى المدينة من إثارة العصبية القبلية بين قبيلتى الأوس والخزرج . وإعادتهما إلى ما كانا فيه فى الجاهلية . من حروب وإحن . وتذكرهم الآيات بفضل الله عليهم ونعمه . واليهود – تاريخيا – كانوا يجاورون هاتين القبيلتين وكانوا يوقدون نار العداوة بينها . وحين أسلمت القبيلتان وانضوتا تحت لواء الإسلام . عزّ ذلك على اليهود فحاولوا إثارة ما كان بينها فى الماضى . ولقد سجلت الآيات هذا الموقف .. تذكيراً بفضل الله وتحذيراً من الانسياق وراء اليهود ...

وأول هذا الفضل ... يتمثل فى نعمة الاسلام . تلك النعمة التى انتشلتهم من الضلال إلى الهدى ، من التفرقة إلى الوحدة ، من العداء إلى المحبة ، من النار إلى الجنة .. من الموت والقتل والدماء ، إلى الحياة وحفظ النفس والروح والسلام ... ولقد صورت الآية هذا المعنى فى أيجاز بليغ .. **﴿اعتصموا بحبل الله جميعا﴾** .. فالقرآن الكريم دستور المسلمين هو الرباط القوى الذى يربط المسلمين فيوحدهم ، فينجوا به .. فالقرآن هو الحبل ..

---

(٩) آل عمران ١٠٣ .

والحبل وسيلة للتجمع ، والرباط ، والقوة ، وهى وسيلة مادية محسوسة ، فضلا عن أنها إحدى مفردات البيئة الصحراوية ... فهى أداة ملموسة ، والنفع فيها واضح والحاجة إليها ماسة .. وأضيفت كلمة الحبل المصورة لهذه المعانى إلى الله سبحانه .. لبيان أن الفضل كله لله .. وأن النعمة جميعها من الله ... فالقرآن / الحبل . ليس حَبْلاً عاديا ، وإنما هو وسيلة الله .. لانقاذ البشر من الضلال وربطهم بما يعصمهم من الفساد ...

ومن ثم جاء الأمر فى الآية للتكليف .. بضرورة الاعتصام ... وعدم نسيان الأمر فيه أبداً فهو حبل النجاة الحقيقى .. وتأتى كلمة « جميعا » لتضيف دلالتين مهمتين تؤكدان المراد . « جميعاً » .. قد يراد بها ... التمسك بدين الله وكتابه جميعا .. والبعد عن الاختلاف فى الدين كما اختلف اليهود والنصارى وقد يراد بها .. الالتفات إلى جماعة المسلمين فى حالة توحدهم وتجمعهم وتآلفهم وابتعادهم عن التفرقة والاختلاف .. إن الدلالتين ممتزجان تماما ...

إنها الأخوة المنبثقة عن الاسلام ... وليست المنبعثة عن العضبية الجاهلية والتى يسعى اليهود إلى إحيائها من جديد .. إن الأمر بالاعتصام فى هذا الموقف يستدعى التذكير بالماضى .. حيث يقف الماضى أمام الحاضر وجها لوجه . لقد كانت الأوس والخزرج – ككل العرب قبل الاسلام – فى حياة سادرة ، توصلهم إلى العذاب والوقوع فى النار .. فالعداوة كانت الصفة السائدة ، والاشتجار الدائم كان طبيعة الحياة ثم تحولت الحياة وتبدلت من النقيض إلى النقيض .. فحدث التأليف بين القلوب ، وتحققت الأخوة وأضحى التلاحم بين المسلمين قائماً ..

وجاءت الألفاظ المتضادة لتوضح لنا هذه الصورة فى جانبيها المختلفين ، ولتقف مع الماضى والحاضر فى دلالة متصاحبة . الماضى /

أعداء ، أما الحاضر / إخوان .. وإن الصورة واضحة تماماً .. والنعمة الإلهية متجسدة تجسداً لايحتاج إلى دليل .. فالماضى القريب لاينسى والحاضر معاش لاينكر .

وتوضح الآية حالة السقوط الرهيب الذى أوشك الناس أن يقعوا فيه قبل الهداية .. (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) . إننا هنا أمام مشهد حى ، يصور حسيا هذا المعنى الدلالى الضال .. إنه مشهد حى تتحرك معه القلوب ... هاهم على وشك السقوط (وبينما حركة السقوط فى حفرة النار متوقعة ، إذا بالقلوب ترى يد الله ، وهى تدرك وتنقذ . وحبل الله وهو يمتد ويعصم . وصورة النجارة والخلاص بعد الحظر والترقب . وهو مشهد حى متحرك تتبعه القلوب واجفة خافقة وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال)[١٠]

إن الآية تصور حركة الأقدام التى كادت تزل ، ثمة حركة مقلقة خائفة .. ترعش القلب خوفا ، وثمة حفرة عميقة تتلظى فيها النيران عاتية لاظية تلفح ، وتلسع وتحرق ... إن اللون وظلال الحرارة ، وظلمة الحفرة ، يتضافر جميعا ليبرز هول الصورة وقتامتها .. وتستدعى الصورة الرؤية وحاسة البصر لترى هذا الهول الذى يمكن أن يقعوا فيه ...

إن القلوب واجفة ، والحواس متقدة خوفا ورعبا والأقدام قلقلة .. ولا منقذ للناس إلا الله ، واعتصامهم بكتابه ودينه .. ولننظر إلى جمال التعبير (إذ يرسم هذه الصورة ، ثم يجعل هذه الحفرة من النار ، ويجعلهم على شفا منها ، فيطوى الحياة الدنيا كلها - وهى الفاصل بينهم وبين النار - ويجعلهم - وهم بعد أحياء - واقفين هذه الوقفة على شفا حفرة من النار ،

---

(١٠) الظلال جـ١ ص ٤٤٣ .

حينما كانوا من الكفار)[11] ولعل مناسبة الآية .. توضح هذا المجال التصويرى وتساعد عليه .. يروى أن يهودياً مرّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فى مجلس لهم يتحدثون ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة ، فسعى إلى من يذكرهم بيوم (بُعاث) .. وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس .. فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا .. السلاحَ السلاحَ ، فبلغ النبى ﷺ فخرج إليهم فقال .. (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكمَ الله بالإسلام ..) فعرف القوم انها كانت نزعة من الشيطان .. فألقوا السلاح .. ثم انصرفوا مع رسول الله مطيعين[12]

إن المناسبة صورة من كيد اليهود للاسلام والجماعة المسلمين .. ومن ثم جاء تذكير المسلمين بنعم الله قويا واضى وحاسما – كما جاء الأمر بالاعتصام بدين الله وكتابه الوسيلة الوحيدة للوحدة والابتعاد عن التفرق وتفويت الفرصة على الأعداء وما يضمروه من سوء للاسلام وأهله ..

ومن نماذج التصوير .. فى القرآن ... رسم المشاهد فى صورة حية متحركة .. تنطق بالحياة .. مما يمكن أن نسميه – إن صح التعبير – الرسم عن طريق الكلمات ..

وفى هذا الجانب تتعدد الصور الفنية تعدداً يكاد يكون سمة عامة فيما يتصل بالمشاهد الحية التى تتناول موقفا من المواقف ... تتنوع فيه الشخصيات ، والأمكنة ، والحركة .. ويحول المكان المشخص إلى حياة كاملة تتنفس وتحيا وتنفعل .. شأن الإنسان .. ويتضح ذلك فى مشاهد الحروب والغزوات ، وفى مشاهد مواجهة الرسل لأقوالهم ، وفى مشاهد يوم القيامة

(١١) التصوير الفني ص ٤٧ .

(١٢) صفوة التفاسير جـ١ ص ٢١٧ .

وأهوالها .... وفى مواقف الرسل الخاصة .. كموقف الطوفان ، وموقف السحرة ، وموقف تحطيم الأصنام ، وموقف ميلاد المسيح ، وموقف بعض الغزوات الاسلامية .. وغيرها .. بحيث يتحول الموقف بأبعاده البشرية والمكانية إلى لوحة فنية ناطقة .. تنطق بمعالم الفنّ الحسى ، بحيث يستطيع الفنان أن ينقلها صورة فنية تزخر بجمال لانهائى ..

إنها تقبض على الأنفاس ، وتتغلغل إلى القلوب وتجسد فى أداء تعبيرى معجز كل الانفعالات البشرية فى حالة تحولها وترقبها وخوفها .

قال تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ، اذكروا نعمة الله عليكم ، إذْ جاءتكم جنود فأرسلْنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومنْ أسفلَ منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتُلى المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسولهُ إلاَّ غرُوراً . وإذْ قالت طائفةٌ مِنْهم يا أهلَ يثربَ لامُقامَ لكم فارجعوا ، ويَسْتأْذن فريق مِنْهم النبىَّ يقولون إن بيوتنا عورة وماهى بعورةٍ إنْ يريدون إلا فراراً . ولو دُخِلَت عليهم من أقطارها ثم سُئلوا الفتنة لأتَوْها وما تلبثوا بها إلاَّ يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبلُ لايُوَلُّون الأدبار وكان عهْد الله مَسْئولاً . ﴾[١٣]

الآيات الكريمة من سورة الأحزاب. وهى مدنية تناولت بعض جوانب التشريع الاسلامى لتنظيم الحياة وفق الشريعة .. كما تناولت بالتصوير الدقيق غزوة الأحزاب حيث تآلبتْ قوى الشر والبغى .. للنيل من المؤمنين والكيد

---

(١٣) الأحزاب ٩ ــ ١٥

من الاسلام وكشفت عن القوى الخفية التى تعمل على إحداث الفساد من الداخل . تلك القوى هى المنافقون .. وكشفت الآيات طرقهم ووسائلهم ف الكيد والتخذيل والتثبيط .. ومن ثم جاء التذكير بالنعمة التى أنعمها الله على القوى هى المنافقون .. وكشفت الآيات طرقهم ووسائلهم فى الكيد والتخذيل والتثبيط .. ومن ثم جاء التذكير بالنعمة التى أنعمها الله على المسلمين حين ردّ كيد الأعداء وهزم الأحزاب ..

قال أبو السعود : والمراد بالجنود الأحزاب ، وهم قريش وغطفان ويهود قريظة وبنى النضير ، وكانوا زهاء اثنى عشر ألفا . فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة (سلمان الفارسى) . ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين المشركين ، واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظنّ ، ونجم النفاق فى المنافقين حتى قال (معتب بن قشير) يعدنا محمدٌ كنوز كسرى وقيصر ولانقدر أن نذهب إلى الغائط)[١٤]

إن الآيات تصور هذا الحدث تصويراً كاملاً .. وتكشف معادن الرجال ، كما تصف موقفا من مواقف الابتلاء . ولعل الموقف التالى يبين لنا مدى البلاء الذى وقع فيه المسلمون ، وشدة التجربة ، وعمق الامتحان الذى تنصهر به الإرادة . فحين اشتد البلاء على المسلمين .. أراد رسول الله ﷺ أن يخفف الأمر عليهم ، فأعطى قائِدَىْ غطفان ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما .. ووافق القائدان .. ولكن ... حين استشار الرسول سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، فيما أقدم عليه .. استفسر الرجلان عن الدافع وراء ذلك .. فلربما كان مما يحبه الرسول ،

---

(١٤) صفوة التفاسير جـ٢ ص ٥١٤ وانظر أيضاً الكشاف جـ٣ ص ٢٢٩ .

أو مما أمره الله به .. وقال لهما الرسول (بل شيء أصنعه لكم . والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة . وكَالَبُوكم من كل جانب ، فأرت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما ..) .. وهنا تتبدى طبيعة الرجولة الحقة ، وتظهر معادن الرجال الأصلاء ، وتنكشف القلوب عن إيمان عميق لا يداخله شك أو يخالطه نفاق . فيقول سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرىً أو بَيْعا . أفحين أكرمنا الله بالاسلام ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا .. والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ..

وتبدأ الآيات الكريمة بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم .. فى هذا الموقف العصيب ... ولقد لخصت الآية .. بداية الحدث ونهايته ..
ففى البداية .. نرى جنود الأعداء وقد احتشدوا لمواجهة المسلمين فى عناد جامح ... فالقبائل قد تألّبت واستعدت وحاصرت المسلمين حصاراً طويلاً .. حتى كادت النفوس تضيق بالحصار . هذا الحصار الطويل الذى كان امتحاناً لكشف طبائع النفوس .. فى هذا الجو القاسى جاء فرج الله .. حيث أرسل على الكافرين الريح .... كما أرسل الجنود أما الريح فكانت ريح الصبا « قال ﷺ نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور »[١٥] أما الجنود فهم الملائكة .. وقد قذفوا الرعب فى القلوب .. حتى ماجت الخيل بعضها فى بعض ..

ولعلنا نلاحظ هذا الجانب التصويرى الذى يحمله لفظ جنود .. فنحن هنا أمام قوتين ، قوة الكفر ، وقوة الإيمان ، وكل من القوتين تستند إلى جنود تدافع عن فعلها ومذهبها .. ولكن جنود الأولى جاءت بفعل البشر ..

(١٥) الكشاف جـ٣ ص ٢٢٩ .

من أجل البشر .. وكان الخطاب موجها إلى المؤمنين لبيان عجزهم عن مواجهة جنود المشركين .. أما جنود الثانية فقد جاءت منَّة من الله ونعمة .. ومن ثم كان الضمير الدال على التنظيم ، وإسناد المنة لله سبحانه . ولأنها منةً فلقد جاءت مستورة عن المشاهد .. ولكنها واضحة بأثر الفعل .. وما حدث فى صفوف المشركين .. من هلع وفزع ...

ولقد جاءت المفردة نكرة ولكن التنكير خُصّص بوصفها .. فأحدث هذا التخصيص توضيحاً وتعميقاً للمعنى . فالآية الأولى فى هذا الحادث . لخصت الموقف كله .. جاءت جنود المشركين لحربكم فأخافتكم وأنزلت الرعب فى قلوبكم ، ونزلت ملائكة الرحمن .. فقلبت الموقف وردت الرعب إلى أصحابه .. تلك بداية الغزة ونهايتها .. ولكن ماذا عن الوسط ؟ .. وسط القصة .. وحدثها الكبير ؟

هنا تعيد الآيات مرة أخرى فى تفصيل واضح ماجرى أثناء هذا الموقف العصيب .. فترسم صورة الهول الذى روع المدينة . والكرب الذى شملها .. فلقد أطبق المشركون على المدينة من كل اتجاه من أسفل الوادى ومن أعلاه .. وحوصر المسلمون .. وتخيل انساناً واقعا فى دائرة حصار كهذه ... أعلاه خوف . وأسفله رعب ... كلما اتجه هنا أو هناك ، وجد العدو يتربص به ...

وهنا تتجلى الصورة القرآنية فى توضيح هذا الفزع الشديد الذى أصاب الناس حينئذ .. وتتقدم حواس الإنسان ومشاعره لتتسيَّد الصورة ، وتقوم بنقل الانفعال والخلجات والحركات كأننا أمام مشهد مصور .. فهاهى الأبصار قد زاغت (ومالت عن سننها ، ومستوى نظرها حيرةً وشخوصاً)[16] ولم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع . وها هى القلوب

---

(١٦) المصدر نفسه ص ٢٣٠

تضطرب خوفاً ورعبا ، حتى لنكاد نرى حركة الاضطراب ظاهرة من شدة النبض الخائف .. ونرى الصدور ترتفع كأنما تقفز القلوب ، أو تتصاعد إلى أعلى حتى تُسدَّ منافذ التنفس ، فيشرف القوم على الاختناق .. وهذا التصوير نقل طبيعة الخوف نقلاً مشخصا .. فالخوف غريزة ، وهو شعور تلقائى .. إنه مردود انفعالى .. وهو حالة معنوية .. ولكن الآية جسَّدتها ، حتى بدا لنا الخوف شيئاً ماديا ملموساً ومشهوداً .. ونكاد نراه أمامنا بجرمه .. ونلمسه بحواسنا .

واستتبع هذا الإحساس الانفعالى العنيف بروز الظن بروزاً واضحاً .. إنه شيء طبيعي يتولد عن حالة الخوف ، وعن موقف الحصار الطويل ... (وتظنون بالله الظنونا) .. الآية أجملت الظن . وهو حالة معنوية مصاحبة لحالة الرعب . إن الآية تجمل الظن فترسم (حالة الاضطراب فى المشاعر والخوالج ، وذهابها كل مذهب ، واختلاف التصورات فى شتَّى القلوب)[17] الظلال حـ٥ ٢٨٣٧ فظن المسلمون أنه الله يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال وظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون ..

لقد وقع الجميع فى زلزال شديد .. ولعل لفظة الزلزال وتكرارها المؤكِّد ، توضح الموقف .. فالزلزال لفظ مادى يصور مايحدث للأرض من تشققات وانهيارات . وما يصحبه من دمار وقتل للأنس وخراب شديد .. ولكن الزلزال هنا لايقل تأثيره النفسى عن تأثيره المادى .. فالخوف زلزل النفوس ورجّ القلوب وأزاغ الأبصار وحوَّل المواقف وبدا للعين الخائفة أن الأرض تحتهم ترتجّ بهم وتضطرب وأنهم على وشك الهلاك ...

لقد نقلت المفردة القرآنية المعنى الشعورى فى إطار مُجَسَّم تمام التجسيم .. وتمضى الآيات لتكشف مسالك بعض الذين دخلهم النفاق ..

---

(١٧) الظلال جـ٥ ص ٢٨٣٧ .

لقد كان أشد مايكَّرب المسلمين أثناء الحصار ماحدث بين نقض بنى قريظة عهدهم .. ومحاربتهم للمسلمين من الخلف .. فكان المسلمون فى موقف لايُحْسَدون عليه .. المشركون من جهة ، واليهود من جهة .. المنافقون فى صفوف المسلمين من جهة أخرى . ولقد وجدها المنافقون فرصة .. كيف لا .. ولقد دخل المرض القلوب . وانظر إلى كلمة المرض .. لتعرف المعنى المقابل له .. إن المرض يصيب الإنسان أو الكائن الحى وهو خلل عضوى ، وقد يأتى عن طريق تغلغل جرثومى يضعف مقاومة الجسم له .. ولقد نقل القرآن هذا المعنى ليصف به قلوب هؤلاء القوم .. لقد تغلغلت جرثومة الكيْد إلى الاسلام .. فتلونت القلوب بها .. وضعف الإيمان وانكشف المستور الذى حرصوا عليه .. إنهم يعانون من انفصام نفسي .. بين الظاهر والباطن وسرعان ما طغى الباطن ... وانتهزها المنافقون فرصة ..

وإذا كان المرض بهذا المعنى فإن الدواء الحقيقى هو الايمان والخلوص لله سبحانه ، والأمل فى رضاه ونعمته .. إنّه الصحة / هى الايمان ، والمرض / هو الخلط والفساد والضعف .. إنّه نموذج بشرى .. موجود فى كل زمان ومكان .. وقصدت الآية إلى كشفه وفضْح أساليبه ، وتربية المسلمين تربية نابعة من التجربة لمعرفة الصحيح من الباطل ..

إن العلة واضحة ... كأنما تسْرى فى الجسد .. وقلوب المنافقين منشورة أمامنا فى صورة العليل .. وهى صورة مجسمة واضحة تسْتدعى الحواس والانفعال ... ومن هنا كشف المسلك ... عن هذا الباطن المستتر حين طلبوا من بعض المؤمنين أن يرجعوا إلى المنازل فى المدينة ويتركوا محمدًا .. وأصحابه .. وكعادة الجبان الذليل المخادع .. فقد تعللوا بعلة البيوت المكشوفة التى لايحميها أحد والتى تقع فريسة فى يد من يريدها بسوء .. وهم فى الحقيقة لايبغون إلا فراراً من الموقف وصعوبته .. لقد فضحتهم الآيات وبينت كذبهم .. وكشفت طبعهم النفاقى الدائم .. إنهم

على استعداد فى أى موقف أن يكفروا وأن يقاتلوا المسلمين .. فهم لايحافظون على الإيمان ولايستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . وهذا ذم فى غاية الذم .

يقول الزمخشرى : والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ويتمحلّوا ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملؤوهم هولا ورُعبا وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كَبَسُوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين لسارعوا إليه وماتعللوا بشىء وماذاك إلا لمقتهم الاسلام وشدة بغضهم لأهله وحبّهم الكفر وتهالكهم على حزبه)[١٨]

لقد رسمت الآيات مشهداً كاملاً تضافرت فى رسمه الألفاظ ، والدلالات المصاحبة ، والصور البيانية ، وتجسيم المعنوى وتشخيصه .. وتشكيل المكان وثقله .. بحيث أصبحت الآيات لوحة متكاملة فى التعبير الفنى . من حركة مادية ، وحركة انفعالية ، إلى ظلال الخوف المترسب والظاهر ، إلى التلون فى المشاعر ، إلى اللون حيث ظلمه الباطن المنافق ، وخداع الضياء الظاهرى .. مما يجعل التضاد ومحوراً تعبيريا يساعد على رسم الصورة وتجسيمها ..

ورسم الصورة هنا ، يصور فى حركة حية حادثة حدثت – وهى الغزوة – فى حالة الفعل والحصار حادثة وقعت ، ولكنها بعد أن وقعت يَظَل لها دوامها واستمرارها . وتأثيرها .. لأنها تعاملت مع الإنسان ... فى نمطه وتنوع مشاعره .. والإنسان محور كونى ثابت ومتغير ، ثابت بالتواصل ومتغير فى علاقاته بالمكان وبالآخرين .. وبالمواقف .

---

(١٨) الكشاف جـ٣ ص٢٣١ .

ومن ثم يصبح لحركة الوجدان المائرة فى الداخل والظاهرة على ملامح الوجه ، ومسلك الانسان .. ثباتٌ ودوامٌ واستمراراً .. فضلا عن الغوص إل داخل الذات .. والاعتقاد بأن النية هى أساس الفعل ، والابتعاد عن خداع الظهر .. فكم من ظاهر استتر وراءه باطن فاسداً .. يقول سيد قطب رحمه الله فى تعليقه على هذا المشهد المصور .. (لاتفلت فى الموقف حركة ولاسمة ، إلا وهى مسجلة ظاهرة ، كأنها شاخصة حاضرة .. تلك حادثة وقعت .. ولكن صورتها ترسم الهزيمة مطلقة من كل ملابسة ، مايزيد عليها أو ينقص إلا جزئيات فى الواقع . أما الصورة النفسية مخالدة تتكرر فى كل زمان ، حيثما التقى جَمْعان ، وتعرض أحدهما للخذلان .)[١٩]

ولنأخذ نموذجاً آخر يؤكد عمق التصوير كأداة فنية مميزة فى القرآن الكريم وهو مشهد صوّر حركة طبيعة مغموسة فى مشاعر انسانية مضطربة . هذا المشهد يكثفه .. الطوفان .. فى قصة نوح ..

قال تعالى :

﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنّور قلنا احمل فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مَجْريها ومرساها إنّ ربى لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال . ونادى نوح ابنه وكان فى معزلٍ ، يابُنىّ اركبْ معنا ولاتكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل ياأرض ابلعى ماءك . وياسماء أقلعى وغيض الماء وقُضىَ الأمر ، واستوت على الجودى وقيل بُعدا للقوم الظالمين . ﴾[٢٠]

---

(١٩) التصوير الفني ص ٥١

(٢٠) هود ٤٠ — ٤٤

هذا مشهد قصصى فى المقام الأول بلغ فيه الأداء التصويرى حدًّا رائعاً من الأعجاز ، فثمة موقف قصصى . يجرى فى ساحة تتفجر بالحدث .. وشملت مفردات الحدث ، الطبيعة والإنسان ، ووشى الموقف القصصى بمشاعر الأبوة الملهوفة ، والبنوة المعاندة .. ويشمل المشهد كله الأمر الالهى ، بالفعل وبالكف عن الفعل فى جلال وكمال يلقيان به .

فها هى عيون الأرض تتفجر ماء وتفيض . والسماء تفتح أبوابها وينهل المطر غزيراً ، وطغى الماء ، وعلا حتى غطى كل الجبال المرتفعة وجاء الأمر الإلهى إلى نوح .. أن يحمل فى السفينة من كلّ زوجين اثنين وسارت السفينة تصارع الموج المتلاطم محروسة فى مجراها ومسراها برعاية الله . والأمواج تصنع الدوامات ليقبر الكافرون فيها ، وليس لهم منجاة من الموت مهما صارعوا الموج وهربوا منه .

وهذا الهول الذى يحيق بالناس ، ينبت هولا جديداً حين يبصر نوح ابنه فيدعوه أن يركب معه ، فعواطف الأب التى تحركت فى قلبه جعلته يتلهف على ابنه ، ويناديه لعل نداءه يصل إلى مكان الإيمان من قلبه فيؤمن الابن أو يذعن .. إنه يناديه فى لهفة : يابنى هلّم إلى السفينة ولا تكن من القوم الذى غضب الله عليهم .. ولكن الكلمات لا تصل إلى قرارة وجدان الابن العاق . فيتمادى ، ويصرخ متحديا :

– إننى سآوى إلى جبل مرتفع يعصمنى من الماء ..

ولم يستمع إلى نصيحة الأب الذى أشجاه الهم فيقرر فى حسم

– يابنى لاعاصم اليوم من أمر الله .

وتعلو الأمواج ، وتبتلع الابن ، ويطوى الماء كل شىء ..

إننا هنا أمام مشهد يمتلىء بالحركة والقوة والعنف ، وبلغ التصوير مداه فى رصْد ذلك كله .. فالموج المتراكم كالجبال فى الثقل والضغط والجرم

والارتفاع .. وحركة الموج تتراكم وتتصلب حتى لتبدوا للرائى أنها جبل حقيقى .

والتصوير الحسى يخاطب العين وهى وسيلة إدراكية مؤثرة تلتقط أبعاد الهول المرئى فى امتداده وصخبه وعنفوانه ... ولنتصور السفينة وسط هذا الهول الطبيعى ، والقلب معقود على الإيمان بالله ، والأمل فيه ، والعيون لاتستعصى على رؤية المشهد بهوله وجبروته وشدته . ويتوازى مع الهول المادى هول نفسى ..

ولقد أدى التصوير الحي هذه الحركة النفسية أداء بالغاً فى الإثارة الوجدانية . فثمة نداء من نوح عليه السلام ، نداء عالٍ كأعلى مايكون الصوت ، صارخ كأحد مايكون الصراخ ، حتى يصل إلى الابن واضحاً وسط هذا الصخب والتلاطم .. ثم يأتى الحسْم بين النداء ، والإباء . فجاءت كلمة (حال) دلالة على الحجز والمنع . وهى دلالة إشارية إلى عنف الموج واضطرابه . فالموج عاصف لايأبه بعاطفة ، أو بوجدان ، إنها فى صورة حية مشخصة ، فقد جاء الأمر أن يغرق الموج الكافرين . والابن منهم ، فلامجال للنداء ، ولاضرورة للاستجابة . واستوى كل شىء أمام الماء ، الأرض والإنسان . فلا الأرض تملك من نفسها شيئا ولا الإنسان يقوى على المواجهة .

لقد تكافأ العجز فى الطبيعة والإنسان . وهو تأكيد وترسيخ للقدرة الإلهية والعظمة الربانية .

ثم نأتي إلى بقية المشهد ..

فبعد أن وصلت الحركة إلى الذروة آن لها أن تجد قرارها وتستكين . لقد هدأت العاصفة وبدأ السكون يخيم ، ويتمشى الهدوء ، وتستقر الأرض من جديد . فلقد جاء الأمر إلى الأرض أن تفيض ففاضت وبلعت ماءها ، واستعادت جأشها وامتثلت لأمر الله . كما جاء الأمر إلى السماء ، فامتثلت

وحجبت ماءها وأقلعت . وقضى الله الأمر ونفذ القضاء . وجاء الأمر حاسما نقلته أداة النداء (يا) المصحوبة بالفعل الطلبى ، المطلوب تحقيقه (ابلعى – أقلعى) .. فى تصوير مشخص .. والتصوير التشخيصى .. يجعل السماوات والأرض منقادة للمشيئة غير ممتنعة فى التلقى والأداء « كأنهما عقلاء مميزون قد عرفوا عظمته وجلاله وقدرته ، وتبينوا تحتُّم طاعته عليهم وانقيادهم له »[٢١]

ثم ينقل المشهد فى أداء تصويرى سريع إلى النهاية .. ونقل المشهد سريعا ، تطلب بلاغيا ونسقيا أن يكون البناء للمجهول (غيض) تأكيداً على الفعل نفسه ووقوع حدثه .. إن وقوع الحدث عبْر أمر طلبى يستدعى تشخيص المادى بخصائص العاقل الواعى ، فتكتمل الاستجابة ويتحقق المغزى . وكذلك الفعل (قيل) فعل مبنى للمجهول يحمل اللعنة على الظالمين ، لعنة ليست آتية من فرد بعينه فى زمن بعينه وفى مكان بعينه ، وإنما حملت الدلالة العامة الشاملة للإنسان وللزمان وللمكان . كما أنَّ (مجىء أخباره على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكوّن قاهر ، وأن فاعلها فاعل « واحد »[٢٢]

والموقف المصوّر فَصْلٌ فى قصة نوح .

والقصة تبين موقف الرسل من أقوامهم المعارضين المعاندين . والقصة القرآنية تبرز الغرض الدينى من خلال السياق الفنى ، فى نسق تعبيرى متوازن يجمع بين الغرض الدينى والغرض الفنى .. فى إطار تصويرى بالغ الروعة ..

---

(٢١) الكشاف جـ٢ ص ٢١٧ .

(٢٢) الكشاف جـ٢ ص ٢١٨ .

فالمواقف القصصية والمشاهد المصورة ، لم تنقل بطريقة إخبارية تزودنا بالمعلومات وكفى ، ولكنها تنقل بطريقة تصويرية يتجلى فيها الفن وجمال العرض وروعة الأداء التعبيرى .. حيث تنقل هذه المشاهد بطريقة يقدِّم فيها الحدث تقديماً كاملاً ، بحيث يعطينا المعلومة الإخبارية ، والدلالة المصاحبة ، ومن ثم يمنحنا التصوير المتكامل للموقف تكاملاً فى الشعور والتأثر والجمال .

الفصل الخامس
التشخيص وجماليّاته التعبيرية

التشخيص وجماليّاته التعبيرية

من أبرز مجالات التصوير فى القرآن الكريم مايمكن أن نطلق عليه

مصطلح .. التشخيص ..

فإذا كانت الأداة المصورة منَ أعظم فعاليات التعبير فى القرآن بحيث تتجلى لنا – كما لاحظنا – المعانى الذهنية والمشاعر الانسانية .. من خوف وفرح وهزيمة – والمواقف البشرية ، والمشاهد المكانية .. وغيرها فى إطار حسى مشاهد يموج بالحركة والفعل ، فإن جانبا آخر من جوانب الأداء التعبيرى يعتمد على التخييل والتشخيص بحيث تبدو الحياة مبثوثة فى الصور التعبيرية . وتتبدى لنا الأشياء فى جانبها الانسانى .. كما لو كانت ذاتا تعي وتنفعل وتشعر ...

إن هذه الأداة التصويرية تحيل المواد والظواهر والانفعالات إلى كائن بشرى تموج بالعواطف والانفعالات والخلجات النفسية . بحيث تبدو كما لو كانت (تشارك بها الآدميين ، وتأخذ منهم وتعطى ، وتتبدى لهم فى شتى الملابسات ، وتجعلهم يحسون الحياة فى كل شيء تقع عليه العين ، أو يتلبس به الحس ، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه ، فى توفز وحساسية وإرهاف)[1]

ولقد توسل الأداء القرآنى إلى هذا الجانب عبر استخدام المجال الاستعارى وهو مجال مفضل فى الأسلوب القرآنى . (فالألفاظ المستعارة ألفاظ موحية لأنها أصدق أداة تجعل القارىء يحس بالمعنى أكمل إحساس

---

(١) التصوير الفني ص ٧٣ .

وأوفاه ، وتصور المنظر للعين وتنقل الصورة للأذن وتجعل الأمر المعنوى ملموساً مُحَسًّا)[٢]

والمجال الاستعارى المرتبط بالتشخيص يؤدى إلى الامتزاج الكامل فى الصورة بحيث أخذ التعبير أقطار الصورة فى جوانبها المختلفة .. ويصبح للخيال دوره الهام فى إشباع الصورة وتمثلها .. والخيال أحد أدوات التشخيص الهامة .. وهو فى المجال الأدبى عمل جوهرى وأحد عناصر التجربة الفنية ، يلجأ إليها المبدع ليعبر به عن مكنون الذات .. حين تعجز الألفاظ الوصفية عن نقل التجرة .. فالخيال أو التصوير مردُّه إلى قصور الألفاظ ومعانيها الحقيقية عن التعبير عما يشاهده الأديب فى حياته النفسية الداخلية من مشاعر .. فيتحول من مجاز إلى مجاز ومن استعارة إلى استعارة . وكأننا نقفز معه فى سمائه من أفق إلى أفق ، فنشعر بغير قليل من البهجة ، أو قل كأننا معه فى دار خياله تعرض علينا صوراً متتابعة ننفصل بها عن حياتنا الواقعية ، فنسكن إليها ، ونحس بغير قليل من المتعة ، إذ نشعر كأننا تخلصنا من أعباء الحياة ، وانزاحت عنا إلى حين)[٣]

إن الأديب المبدع يلجأ إلى استخدام التشخيص ليحيل الأشياء إلى ذات تنفعل وتتحرك ، ويصبح الكون فى عين الشاعر . ذاتا ناطقة منفعلة ، ليخلص فى النهاية إلى استيلاء قدر كبير من الجمال الفنى والتأثير النفسى .

والأداء القرآنى وهو يستخدم هذا الجانب التعبيرى يدرك حاجة المتلقى النفسية إلى تصور الأشياء والمشاعر ... شخوصاً متحركة .. بحيث يبدو المجال مؤثراً ومتغلغلاً فى الذات . وبحيث تتبدى لنا الأشياء . التى نراها ساكنة ، حية منطلقة واعية ، وكأنما تشارك الإنسان حياته ، وتواصله ،

(٢) التعبير الفني في القرآن : بكرى شيخ أمين ص١٩٥ .
(٣) في النقد الأدبي د. شوقي ضيف ١٥٠ .

ووجدانه ... وهى أداة تحمل الاقتناع الذهنى والنفسى على جناح من الخيال الجميل المؤثر .. إن الأداء التصويرى المشخص (يهب للجماد العقل والحياة زيادة فى تصوير المعنى وتمثيله للنفس)[٤] كما أنه يسلم المتلقى (إلى عالم من الخيال يتناسب مع حدة شعوره وانفعاله)[٥]

إن التداخل بين الحواس يؤدى إلى شيوع علاقات جديدة ، لها فاعلية فى التصوير والأداء والتأثير ، ناتج عن الصورة التركيبية الجديدة للعلاقات . وتصبح قوة التركيب هذه من أكبر القوى المتمايزة والمتداخلة فى تكوين المجال الاستعارى المشخص . (فالتجسم والتشخيص يتعمقان بناء اللغة ، وضمائرها ، وأفعالها وصفاتها)[٦] وهو يعقد تلك المقارنة والملاءمة بين الجماد والذات البشرية فى إطار جديد من العلاقات الإنسانية المتجاورة بين المادة والعقل المنفعل . بحيث يتسرب التشخيص فى كياننا عميقا موغلا يربطنا بالطبيعة بوثاق أثيرى جذاب .. ومن ثم يصبح للتشخيص تأثيره العميق فى النفس البشرية . فهو ذو قدرة على التكثيف والاقتصاد والإيجاز .

ولننظر إلى التشخيص فى القرآن الكريم ..

قال تعالى :

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب . أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾[٧]

ولابد من سبب قوى يجعل الغضب فى هذه الشدة وهذا العنف بحيث يتملك موسى عليه السلام ويسيطر عليه ..

---

(٤) التعبير الفني ص ١٩٧ .

(٥) القرآن والصورة البيانية د. عبدالقادر حسين ص ١٧٥ .

(٦) الصورة الأدبية د. مصطفى ناصف ص ١٣٥ .

(٧) الأعراف ١٥٤ .

ترى ما السبب ؟ ..

السبب تفسره لنا هذه الآية الكريمة .

قال تعالى :

﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين ﴾[8]

إن الآية الكريمة تتحدث عن بنى اسرائيل وعن النعم التى أنعم الله بها عليهم ثم قابلوها بالجحود والعصيان .. هذا الجحود الذى تبدى فى ردتهم عن الإيمان ومعاودتهم لعبادة العجل .. فالذين عبدوا العجل واتخذوه إلها سينا لهم غضب شديد من الله ... وينالهم فى الدنيا خزى وذلة .. لقد اندفع القوم فى هياج شديد واندفاع متعجل إلى عبادة العجل الذهبى .. واستضعفوا « هارون » حين حاول ردَّهم .. ونصحهم .. مما أثار فى موسى انفعالاً قوياً ، ألجأه إلى رمى الألواح وهى كلمات ربه .. لقد أفقده الغضب زمام نفسه ..

قال تعالى : **﴿ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾** الأعراف : ١٥٠

لقد أخذ الغضب مأخذه من موسى وهو النبى ، وهو القوى الجسم أيضا .. ولننظر إلى حركة الرمى الغاضبة المنفعلة ، وإلى قبضه لرأس أخيه هارون فى انفعال حاد لم يطقه الرجل الطيب .. وإلى لسان العقل الهادىء والبصيرة النافذة حين يبرر هارون لأخيه ماحدث .. قال تعالى على لسان هارون :

﴿ابن أم ، إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ الأعراف : ١٥٠

---

(٨) الأعراف ١٥٢ .

إن الألفاظ تحمل دلالات الإثارة المتعطِّفة ، وتحمل النداء الرقيق الذى يثير وشائج القربى .. ومن ثم نأتى إلى الآية المرادة هنا .. ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب** ﴾ الأعراف : ١٥٤

لنعرف مدى ملاءمتها للسّياق .. فسبب الغضب واضح ، وهو سبب فى حقيقته يؤدى إلى الاجتياح الانفعالى .. ويقلب الحليم إلى قوة ضاربة . كما أن الآية وماسبقها تبين لنا شخصية موسى عليه السلام ، هذا الانفعال ، جعله يقتل المصرى ، وجعله يطلب من الله أن يؤازره بهارون الهادىء البصير ..

فالمردود النفسى فى هذا الموقف مردود هائل وقوى يفلت زمام النفس ، ويجعل للغضب الجانح سلطانا عليها .. ومن ثم جاء التصوير فى الآية مجسدا لهذه الحالة الانفعالية فالتعبير القرآنى يشخص الغضب .. ويجعله كائنا حيًّا ضارباً بكل شيء ويحتاج كل شيء ... ويرمى بكل شيء .. تتطاير منه أسنة الغضب فتطول الأشياء . والأشخاص والمكان .. ولقد سكت الغضب .. بعد أن كان شخصا جانحاً يدفع موسى ويحثه على الانفعال وكأنما موسى مسيّر له ..

يقول الزمخشرى فى دلالة التصوير بكلمة « سكت » واشعاعاتها الفنية التى لايمكن أن تثيرها كلمة مرادفة وردت فى بعض القراءات وهى مفردة « سكن » .. (الغضب كأنه يغريه على مافعل ويقول له قل لقومك كذا ، وألْق الألواح وجُرَّ برأس أخيك إليك .. فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يَسْتفصِحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك . ولأنه من قبيل شُعَب البلاغة) وأما قراءة (ولما سكن عن موسى الغضب) فالنفس لاتجد عندها (شيئاً من الهزة وطرفاً من

تلك الروعة)[9]

وهكذا تجمل الصورة تعبيراً فائقاً عن هذا التسلط الانفعالى المشخص فى إطار بشرى هائج .... حتى إذا سكت عنه وتركه لشأنه ، وخفف من تسلطه عاد موسى إلى نفسه .. والتقط الألواح وبدأ يواجه القوم . ليعيدهم إلى الطريق الحق ، ويزيل ضلالهم ، وشقاءهم الروحى .

إن المجال الاستعارى هنا .. أعطى للغضب وظيفة جديدة لم تكن معروفة له .. وأنشأ علاقات بين الانفعال والإنسان .. ووضّح التشخيص عبر الخيال فجعل الإحساس خصبا والفكر متجدداً ، والصورة حيّة ..

ولنستمر فى رصد الانفعال المشخّص ...

قال تعالى :

﴿ فإذا جاء الخوفُ رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ... ﴾[10]

إن النص القرآنى الكريم يصور حالة المنافقين فى موقف محدد وهو غزوة الأحزاب .. والمنافقون (فى نفوسهم كزازة على المسلمين كزازة بالجهد وكزازة بالمال . وكزازة فى العواطف والمشاعر على السواء)[11] .. هؤلاء هم المعوقون الذين يقعدون عن الجهاد ويبثون الهزيمة ويدعون إليها ..

ولقد رسمت الآية صورة نفسية رائعة ، تنضح بالسخرية ، وحددت نموذجا لنمط من البشر تكشفه حالتان ... حالة الخوف والفزع والهروب أثناء مواقف البأس والشدة . فها هو الخوف يحط عليهم ويشملهم ويحتويهم ويشل حركتهم ، إنه ذو قبضة قوية تعصر القلوب وتلوى الأعناق ، مما

---

(٩) الكشاف جـ٢ ٩٥ ـــ ٩٦ .

(١٠) الأحزاب : ١٩ .

(١١) الظلال جـ ٥ ٢٨٤٠ .

تجعل العيون شاخصة نحوه لاتفلت حركة له ، ولا تفوّت دبيباً فيه . إنهم مأخوذون بجبروته وقوته .. هذا الخوف الذى يمرح فى المكان كالرجل القوى ذى القدرة الآسرة والنافذة التى تغوص إلى الداخل .. هاهو الخوف شخص مجسم يجيء ويروح ويفرض فى مجيئه الهلع والفزع إنها صورة شاخصة ، متحركة ، ومتلونة بألوان العواطف وحركات الملامح ...

وتصور نفسك وأن ترى عيون هؤلاء الجبناء تدور حيثما دب الخوف المشخص وملأ المكان بجرمه .. إنهم فى لحظة هاربة ، تشبه لحظة المغشى عليه من الموت .. وهو يعالج ... سكرات الموت وشدته .. وكأنما العيون تكاد تخرج من أحداقها .

قال القرطبى : (وصفهم بالجبن ، وكذا سبيل الجبان ، ينظر يمينا وشمالاً محدداً بصره ، وربما غشى عليه من الخوف ..)[١٢]

فإذا تولى الخوف وذهب وانجلت المعركة لبسوا رداءاً جديداً ، وتحولوا إلى صورة مغايرة ، فملأهم الغرور الكاذب والاعتداد بالنفس البعيد عن الحقيقة وبدأوا يقدمون طلبات ، ويطلبون مطالب . كما لو كانوا قد فعلوا شيئاً مفيداً أو ساهموا فى نَصْير ما .. وهم فى الحقيقة عبء وعالة .

ما أن تنجلي المعركة ، حتى يعلوا الصوت سليطا مؤذيا . يبالغون فى الذم ، يطالبون بالغنيمة ، ويذكّرون القوم بما فعلوا . وهم لم يفعلوا شيئاً إلا التعويق والإغراء بالانسحاب والهروب وكأنهم يقولون فى صوت لاحياء فيه اعطونا مانستحق من مال الغنيمة . فقد شهدنا معكم المعركة ، ونحن معكم لنا الحق مثلما لكم .. وقد كانوا من قبل والخوف يمرح مشخصا مثالاً للجبن والخوف والذلة . إن الصورة ككل تثير السخرية من هؤلاء الجبناء

---

(١٢) صفوة التفاسير جـ ١ ٥١٦ .

الذى تنطق أوصالهم وجوارحهم فى لحظة الخوف بالجبن والذلة حتى إذا ذهب الخوف خرجوا من جحورهم وارتفعت أصواتهم المرتعشة وانتفخت أوداجهم بالعظمة . وادعوا فى غير حياء قتالاً وشجاعة واستبسالاً ، يريدون مقابلاً لها فى المال والغنيمة ..

وهذا النموذج البشرى الذى وقع فى التصوير المشخص بين « جاء الخوف » و « ذهب الخوف » .. نموذج متواجد على مر الزمان والمكان .. فهو الشجاع الفصيح فى لحظة السلام وهو الجبان الرعديد فى لحظة الشدة .

ما العلة إذن فى هؤلاء القومَ . النموذج المزدوج .. ؟

العلة كامنة فى قوله تعالى :

﴿ **أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم** ﴾ الأحزاب : ١٩

فالإيمان لم يخالط قلوبهم فلم يهتدوا بنوره ... ولاشك أن الصورة قد تركت فى النفوس الاحتقار لهذا النموذج والسخرية منه والابتعاد عنه ، وهوانه على الله وعلى الناس .

إذن فالمجىء والذهاب بالنسبة للخوف ليس على الحقيقة وإنما هو تشخيص مصور مجسم ، يلقى بالتأثير فى قرار النفوس . ولاشك أن هذه الصورة المشخصة لخوف رفدتها عوامل لفظية وبيانية أخرى اندرجت كلها تحت الصورة الكلية .. فمفردة ذهب / جاء . تعكس حالة التضاد فى موقف الجبناء ومن ثم تكشفهم وتفضح أمرهم .. ذلك أن موقفهم الحقيقى كامن ودائر بين المجىء والذهاب . ثم تأتى الصورة البيانية .. لتوضيح حالتهم أثناء الخوف .. حيث بدا التشبيه عاكساً لفعل الخوف فى العيون مثلما يحدث لمن يعانى سكرات الموت ثم تأتى الصورة البيانية الأخرى لترفد تلك الصورة عن طريق التضاد أيضا .. فهم فى لحظة النصر يتيهون ويسلقون القوم

بألسنتهم فبدا اللسان صارماً كالسيف .. وتلك طبيعة المنافقين دائما....

وقريب من هذا التناول قوله تعالى :

﴿ فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط . إن ابراهيم لحليم أواه منيب ﴾(١٣)

لقد شخصت الآية الروع كما شخصت البشرى .. إن الآية تتحدث مع غيرها عن ضيوف ابراهيم من الملائكة وقد بشروه بشارة سارة بولادة غلام له .. تلك البشارة التى جعلت زوجته تندهش قائلة فى عجب كيف ألد وأنا المسنة ، والزوج شيخ هرم ... كيف يتأتى لنا هذا ؟ .. وهو الموقف الذى غزا الخوف فيه ابراهيم حين رأى ضيوفه ، لاتمتد أيديهم إلى الطعام ... فأوجس منهم خيفة . قالت قتادة : كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجىء بخير وأنه جاء يحدث نفسه بشرٍ .. ومن ثم تأتى الآية عبر السّياق لتنهى هذا الموقف المتوجس .. فها هو الروع قد ذهب عن ابراهيم واطمأن قلبه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة ، وجاءته البشارة بالولد ، ومن ثم بدأ السياق يأخذ مسرى آخر .. وهو المجادلة فى شأن لوط وأهله ..

لقد عكست الصورة موقفين نفسيين مرّ بهما ابراهيم عليه السلام .. فالروع يأتى هائجا شاملاً يحتاجه . ثم سرعان ما يهدأ ويسكن ، إنه مثل الكائن الحى القوى الذى تتغير حالة من هياج إلى سكون .. ولقد أنمحت صورة الروع المجسم المشخص لتحل محله صورة مجسمة شاخصة .. هى صورة البشرى وقد جاءت على هيئة فتاة وادعة ساكنة هادئة ، مبتسمة توحى بالخير وبالبشارة .. ومِنْ ثَمّ كان السكون والهدوء وطمأنينة القلب ..

إن الحركة حية ، تنبض بما ينبض به الإنسان من مشاعر متغايرة ،

---

(١٣) هود ٧٤ ــ ٧٥ .

لوّنت العواطف البشرية بألوان مادية لها صفة التشيُّؤ .

وننتقل إلى لون آخر من التشخيص ..

قال تعالى : ﴿ **والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس .** ﴾[14]

وقال تعالى : ﴿ **والليل إذا يَسْر .** ﴾ الفجر ٤

سورة التكوير مكية ، وهى تتصف بما تتصف به السور المكية ، من الآيات القصار ، وتوالى الفواصل وجمال الايقاع الصوتى ، وتناغم الألفاظ مع المعانى وبناء الصور الحسية الجزئية التى تعبر عن المشاهد والمواقف تعبيراً سريعاً أخاذاً .. فضلا عن أنها تتناول مشهداً من مشاهد يوم القيامة وهو جانب هام من جوانب العقيدة الإسلامية .

والسورة ترسم مشهداً غاية فى القوة ، ألوانه وظلاله وأجرامه مفردات كونية .. حيث يحدث الزلزال الكونى فيتبدل كل شيء .. كما أن السورة تؤكد على حقيقة الوحى ورسالة محمد .. وتنفى عنه صفات الكفار وادعاءهم ..

إن الإيقاع فى السورة يهز النفس هزًّا ويخلعها مما تعودت عليه ، حيث يتسيَّد السورة التغير الهائل فى الكون والإنسان ... ولقد صاحب ذلك جمال تعبيرى أخاذ ناتج عن الألفاظ المختارة بإعجاز لتلون حركة المتتابعات فى المشاهد .. ولاشك أن جميع الصور حسية بحتةِ .. توالت فى منظومة حسية تثرى الوجدان وتؤثر فى النفوس ، وتعمل عملها فى النهاية فى أيصال العظة والعبرة ، والتخويف فى جهة ، وفى توصيل الإيناس والطمأنينة والتدعيم للرسول والمؤمنين من جهة أخرى ..

---

(١٤) التكوير ١٧ ــ ١٨ .

ووسط هذا الحشد الهائل من المتغيرات فى الكون ، ومع هذا التيار اللفظى المنساب فى جمال أيقاعى باهر .. وردت الآية الكريمة (والصبح إذا تنفس) التكوير : ١٨ لتنضم إلى المعزوفة الإيقاعية الفريدة فى نظمها وإعجازها .. والآية وردت فى إطار تعبيرى يتسم بالقسم ، وأن المقسم به هو مفردات كونية . وأن الجواب قائم على طبيعة الوحى وصفة الرسول ﷺ .

إن صورة الصباح تسبقها تلك الصورة الفريدة لتصوير الليل فى حركته .. فها هو الليل قد أظلم وسحب عباءته الداكنة على الكون فشملها .. ولكن اللفظ (عسعس) يحيل اليل فى ظلمته إلى شىء آخر .. وكأنما الليل وهو يمد ظلمته رجل له كيانة البشرى يعس فى الظلام .. فيمد يده حينا ، ويمد رجله حينا آخر حتى تنتهى حركته إلى نقطة النهاية التى منها يبدأ الصبح حركته ..

فثمة دبيب متواصل يستمر فى دورة أبدية .. ويتتابع المشهد .. فيتبدل من ظلمة جاثمة تدب الهوين .. إلى صباح ممتلىء بالنور .. وانظر إلى الصورة الجميلة التى تبين مدى وطأة الظلمة على النور .. إن حركة التنفس صفة بشرية تعنى الإشعار بالحياة واستمرارها .. ولكن أنفاس الصباح ليست كأنفاس الإنسان الذى شُخّص به ، إنها أنفاس من النور والحياة .. تجعل الدنيا كتلة من النور الحى .. كما أن الأنفاس دليل على حياة الإنسان ..

يقول سيد قطب : (وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لاتحتوى نظيراً لهذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح بأنه بالفعل يتنفس .. إنه ثروة شعورية وتعبيرية .. ثورة جميلة بديعة رشيقة تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر وهى تستقبل هذه

الظواهر الكونية بالحس الشاعر)[15] .

فالصبح كائن حى مثل (الإنسان والنبات الذى تترد أنفاسه ، وتدب فيه الحياة ، وليس طبيعة صامتة جامدة لاروح فيها ولا حس ، بل الحياة تتجاوب فيه فتكسوه ثوبا جديداً غير الذى عهدناه فيه)[16]

وقريب من هذا المعنى تأتى الآية الأخرى فى سورة الفجر وهى تصور الليل فى سريانه .. (والليل إذا يسر) الليل : ٤

لقد صورت الآية الليل فى حركة اظلامه وامتداده ومسيره الهوين إلى نهايته .. بصفات الإنسان الذى يسير فى تؤدة .. فتحس بسريانه الناعم فى هذا الكون ..

وسورة الفجر مكية تتسم بنفس ماتتسم به السور المكية .. كما لاحظنا فى سورة التكوير . ولكنها تتضمن إشارات سريعة لمصارع الغابرين من الأقوام المتجبرة . كقوم عاد ، وفرعون . فالسورة بها مشاهد متعددة ، ذات إيقاعات متنوعة يحكمها نظام الفواصل الذى يعطى قدراً واضحاً من الإيقاع والتناسق التعبيرى ..

وفى هذا الجو التعبيرى يبدو الليل مخلوقاً ككل المخلوقات الحية ، يسرى الليل .. كالحارس الذى يدب فى المكان يقظا ، اطمئناناً لما هو موكول به .. واختيار كلمة « يَسْر » صفة للمسافر الذى يمضى فى سفره ورحلته ليلا .. ومن ثم جاء التعبير موحياً ، فكأنما الليل يختار فى رحلته السرى .. وهو تعبير مجازى ولكنه أيضا حقيقة .. لارتباط الصفة بالموصوف ارتباطا حتميا .. إن الليل يسرى فنحس سريانه واضحا فى هذا

---

(١٥) الظلال جـ ٦ ص ٣٨٤٢ .

(١٦) القرآن والصورة البيانية ص ٢٠٦ .

الكون العريض .. كما لو كان كائنا حيا يدب ويسرى فى فضاء متناغم مع حركة الكون ومفرداته .

وتتحول الصورة – عبر التشخيص إلى محاورة .. ويصبح الحوار شكلا تعبيريا يؤكد التشخيص ، ويضفى صفات الإنسان على الجماد ، فينطق ويتحاور ، ويشعر ويحس ، ويطيع ، ويتلقى الأمر ، وينفذ .. حركة انسانية ، تحدوها المشاعر ، والادراكات العقلية ..

قال تعالى :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتِيا طَوْعا أو كرها ، قالتا اتينا طائعين ﴾[١٧]

الآية وردت فى سورة فصلت ، حيث وضحت فيها الدلائل على قدرة الله ووحدانيته .. والآية تتحدث عن مشهد الخلق الأول للحياة . خلق السموات والأرض فى شكل دقيق محكم يلفت الأنظار إلى التفكر والتدبر .

يقول الزمخشرى (ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان ، وامتثالهما ، أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووُجدتا كما أرادهما . وكانت فى ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع . وهو من المجاز ، ويجوز أن يكون تخييلا . ويبنى الأمر فيه على أن الله كلم السماء والأرض وقال لهما أئتيا شئتما ذلك أو أبيتما فقالت أتينا على الطوع لا على الكره . والغرض تصوير أثر قدرته فى المقدورات)[١٨]

إن الإستواء فى الآية يعنى القصد . والقصد من جانب الله هو توجه

---

(١٧) فصلت ١١ .

(١٨) الكشاف جـ٣ ٣٨٥ .

الإرادة . وتصبح (ثم) المعروف دلالتها على التراخى والترتيب الزمنى .. دالة على الإرتقاء المعنوى كما يرى سيد قطب رحمه الله إذ إن السماء فى الحس أرفع وأرقى .. والآية تشير إلى انقياد الكون كله لله سبحانه .. وأنه متصل بخالقه اتصال الاستسلام والطاعة ، فلايمكن أن يخرج عنه .. إن السماء والأرض تأتى كل منهما طائعة ، وتسير هينة لينَة ، متجهة إلى ربها متصلة بحركة الناموس الكونى كله .

وإذا كان الجماد قد نطق وحاور وأطاع ، فكيف يكون موقف المعاندين وكفرهم بالله والسماء والأرض تقولان لربهما (أتينا طائعين) فصلت : ١١ . وهذا النمل الصغير العاجز من البشر الذى يدب على الأرض يكفر بالله فى تبجح واستهتار)[١٩]

والآية تبين لنا هذا الحوار الذى دار بين خالق الكون وبين السماء والأرض .. ويأتى الأمر الإلهى طالبا من السماء والأرض أن يأتيا على أية حالة .. الطاعة أو الاضطرار .. وتأتى الإجابة واضحة جلية ... لقد اختارتا جانب الطاعة .. (إن السماء والأرض من الجمادات التى لاتسمع ولاتعى ، ولاتعقل ولاتنطق ولاتجيب إن سئلت ، ولكن عنصر التخييل والتشخيص جعل منها إنساناً ، له عقل وفكر وعاطفة ، فهما يفهمان ما يلقى عليهم ، ويحسان بما يدور حولهما ويرهفان السمع ويأنسان بكلام الله ، فيسرعان إلى تلبية الأمر والانقياد للقدرة الالهية .)[٢٠] إن الكلمة حين تستخدم مجازيا تكتسب قوة لم يكن لنا بها عهد قريب وتكشف عن علاقات جديدة بين الأشياء .

إن العقل الذهنى المجرد قد دخله فى إطاره المجرد كثير من الصور

---

(١٩) الظلال جـ ٥ ٣١١٥ .

(٢٠) الصورة البيانية ٢٠٧ .

الحسية فلاشىء فى العقل لم يدخل بادىء الأمر من سبيل الحواس بوجه ما .
(وليست حالاتنا الروحية فى متناول التفكير ، بمعزل عن ذاك الحس الآسر ، لذلك نعبر عن المجرّد فى حدود المجسّم ، ونصور غير المألوف بوساطة المألوف ، ونعبر عن غير الحسى بحدود حسية ..)[٢١] .

ومن ثم فإن كثيراً من الأفكار والاعتقادات لاتنفصل عن المجال الاستعارى الذى هو وسيلة للعقل وللخيال وللتشخيص وللتجسيم ، فى ارتياد آفاق جديدة للخيال والمعنى ، بحيث تنتظم التجارب وتتنوع وتتحرك وتتخذ أثوابا حية متحركة ، وتتبدى لنا الأشياء مجهولها وحاضرها أمامنا فى عالم يتسم بالحركة والتجسيم ..

ومن ثم فإن عناصر التصوير المشخص ، أكثر تأثيراً فى النفس ، وأعظم اتساقاً فى تجسيد المعنى ، وأدخل أثراً فى النفوس البشرية .. ونحن نتابع حركة التشخيص فى الماديات وقفنا عند الأرض / المادة . والسماء / المادة . كيف تحولتا فى التعبير القرآنى إلى كائن حي ينطق ويعبر .. ويلتزم بالطاعة والخشوع ...

ولنأخذ نماذج أخرى تدور حول هذا المعنى المشخص ..

قال تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبيْن أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا . ﴾[٢٢]

لقد وردت الآية الكريمة فى سياق الأمر الالهى الداعى إلى مراقبة الله فى القول والفعل ، ومداومة الطاعة . والعمل بتكاليفه .. ومن يعمل ذلك

---

(٢١) الصورة الأدبية ص ١٢٩ .
(٢٢) الأحزاب آية ٧٢ .

متوجها إلى الله فإن الفوز حليفه .. ثم تأتى الآية لبيان ثقل التكاليف الشرعية التى أنيط بها الإنسان وأمر بتلقيها والعمل بهديها .. ولكن التعبير القرآنى أبرز هذه التكاليف فى صورة حسية مجسمة فيها الضخامة وفيها الثقل ، وفيها الحمل الذى ينوء بحمله الجمادات الكونية كالأرض وكاليل وكالسموات .

إن الخلائق المادية الكونية الهائلة من شموس ونجوم وكواكب ، تطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة ، وهى تقوم بوظيفتها الكونية غير مختارة .. إنها تعرف ربها وتخضع لمشيئته .. وهنا .. برغم هذا الامتداد الهائل للمادة ، وتجسيمها ، فإنها فى حالة عرض الله سبحانه وتعالى الأمانة الإلهية وهى التكليف .. خافت وارتعبت برغم هذا الثقل الهائل الذى تتميز به السموات والأرض والجبال . دخل الحس البشرى ، وتغلغل فى مسامها المادية وجدان الإنسان ومشاعره .. فبدت فى لحظة مختزلة انساناً يمور بحالات وجدانية ... وأمام هذا العبء الثقيل عبء تحمل الأمانة تضرعت السموات والأرض إلى الله سبحانه أن يبعد عنها هذا التكليف .. لقد أشفقن جميعا من تبعة تحمل الأمانة وغزاها جميعا هذا الشعور بالخوف والإشفاق فردت الأمانة إلى بارئها خوفا ورعبا من نتيجة تحملها ..

فى لحظة خاطفة وعت الماديات فى وجدان خائف نتيجة التبعة .. فرفضن تأدبا وخوفاً من النتيجة .. إنها مخاطرة لايقدم عليها هذا الكون الهائل .. الصورة مشخصة حية ، متحركة تتحول المادة فجأة إلى إنسان عاقل يتدبر الأمر والنتيجة ، ويشعر بمشاعر وجدانية مختلطة ، فيأبى ، ويشفق ويتضرع ويطلب فى موقف تكليفى بالغ الاعجاز .

يقول أبو السعود : والمعنى أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث كلفت هاتيك الأجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة .. وكانت ذا

شعور وإدراك على مراعاتها لأبَيْن قبولها وأشفقن منها ..)[٢٣] صفوة التفاسير حـ٢/٥٤٠

وإن خلق الادراك والشعور الذى أراده أبو السعود ليس إلا تصويراً مشخصا أعطى للموقف بهاءه وحسّيته ، وإنسانيته الفياضة .. فضلا عن تعظيم شأن الأمانة ومدى ثقلها ..

ويقول الزمخشرى أن الآية الكريمة قد فخّمت وعظمت من شأن الأمانة فهذه الأجرام العظام قد انقادت لأمر الله عز وجل (وأطاعت له الطاعة التى تصح منها وتليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً وتسْوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال ، قالتا أتينا طائعين ... والطاعة لازمة الوجود ، كما أن الأمانة لازمة الأداء ، وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز)[٢٤]

وثمة ملمح تصويرى آخر جاء عن طريق المجال الاستعارى التمثيلى .. حيث صورت الآية الأمانة فى ضخامتها وعظمها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال ، وهى من القوة والشدة والثبات ، بمنزلة لايدانيها منزلة ، لأربت عن حملها وأشفقت .. وهو تصوير رائع .. حيث صور الأمانة / الطاعة / التكليف . وهى أمور معنوية .. بالحمل الثقيل الذى يعجز الكائن عن حمله .. ومع ذلك فقد حمله الإنسان ، لما فى الإنسان من عقل ووجدان حقيقى غير متخيل ولما فيه من قوة الإرادة والتأمل ، ولما جُبلَ عليه من الحرية والأختيار ومن ثم المسؤولية .. وهى مسؤولية أنيط بها الإنسان .. لاستخلافه على الأرض ..

---

(٢٣) صفوة التفاسير جـ٢ ٥٤٠ .

(٢٤) الكشاف جـ٣ ٢٤٩ .

وفى هذا المجال التشخيصى جاء النداء إلى الأرض أن تفيض ، وإلى السماء أن تكف .. وذلك فى مشهد من أمتع المشاهد التصويرية وهو مشهد الطوفان .

قال تعالى فى سورة هود :

﴿ وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماءُ وقُضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾(٢٥)

إن سياق الآية جاء بعد أن هدأت العاصفة .. العاصفة التى كان فيها الموج متدافعا ، متراكما كالجبال .. وجاء النداء الإلهى إلى الأرض أن تبتلع الماء وتختزنه فى باطنها كما جاء النداء إلى السماء أن تكف عن الهطول .. والنداء لايكون إلا للعاقل ، حتى يستطيع أن يتنبه العقل فيه لتلقى الأمر والأمر لايوجه إلى جماد ، بل يكون للعاقل الواعى .. ومن ثم فإن النداء دخل بالجماد إلى مجال الإنسان .. العاقل المدرك .. إنه مدخل بشرى لتلقى الأمر الإلهى ..

وجاء الأمر إلزاماً إلى الأرض المشخصة فى صورة انسان يبلغه النداء أن تتشقق فتبتلع الماء .. والبلع صفة بشرية .. ضرورية للحياة .. والاستمرار .. فكأن بلع الأرض للحياة ، إنما هو اختزان ضرورى لسبب مهم جداً لاستمرار الحياة وهو المياه .. كما جاء النداء الزاماً إلى السماء أن تكف عما تفعل من إسقاط المطر .. وكأن السماء إنسان يفعل .. ويطلب منه الكف .. إن النداء والأمر جعلا من الجماد وكأننا بشريا حيا عاقلا يتلقى الأمر وينفذه ..

ومن ثم تهدأ عاصفة الكون الكبرى فيفيض الماء ويتم أمر الله بإغراق منْ غرق ونجاة منْ نجا وتستقر السفينة على الجبل إن الأمر هنا كما يرى الزمخشرى مما يختص به أهل التمييز ، وهو دلالة على الاقتدار العظيم ..

---

(٢٥) هود آية ٤٤ .

فالسماء والأرض منقادة لتكوينه فيما يشاء غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميزون ..

وقوله تعالى عن الأرض أيضا فى مجال التشخيص الحى ..

قال تعالى :

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت .. إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾[26]

إن الأرض هنا من الآيات الدالة على وحدانية الله .. إنها يابسة جرداء تشبه الرجل الذليل الخاضع ... ثم سرعان ماتتحرك وتعلو بالنبات حين ينزل الماء فتخرج من الألوان أجملها وأخصبها .. والذى أحيا الأرض بعد موتها لقادر على إحياء الموتى .

ولنتأمل الأداء التعبيرى الجميل الذى توحى به كلمة خاشعة .. بما فيها من حياة وحركة وتصوير فى تناسق فنى يربط به بين حركة الأرض وفعل الإحياء ونقف لحظة أمام دقة التعبير القرآنى فى كل موضع . فخشوع الأرض هنا هو سكونها قبل نزول الماء ثم اهتزازها بعد نزوله . وكأنما هى حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة . والسياق الذى وردت فيه الآية سياق خشوع وعبادة وتسبيح ، (فجىء بالأرض شخصياً من شخوص المشهد تشارك فيه بالشعور المناسب وبالحركة المناسبة .)[27] كما أن لفظ (اهتزت وربت) تخيلان حركة الأرض بعد خشوعها وهذه الحركة هى المقصودة لأن كل ما فى المشهد يتحرك حركة عبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين

---

(٢٦) فصلت ٣٩ .

(٢٧) الظلال جـ٥ ٣١٢٥ .

المتحركين فى المشهد حركتهم .. (وهذا لون من الدقة فى تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير)[٢٨] ..

إن صورة الأرض التى اهتزت وربت بعد جفاف ويبس ، صورة تتكرر كثيراً فى القرآن الكريم ، وتأتى فى سياقها الخاص .. لتثبت قضية يدور حولها التوحيد .. وهى قضية البعث . وقضية البعث – ليست أمراً سهلاً على العقل أن يتصوره فى ذلك الزمان البعيد – الذى طغت فيه الوثنية ، وانطمست فيه الفطرة .. وكان التصوير الحسى المقارن .. الذى يتخذ صفة التشخيص والتخييل أحد أدوات القرآن التعبيرية لتوصيل المعنى المراد توصيلا مؤثراً .. فى النفس ، وقابضا على مدارك العقل . ذلك أن استخدام مفردات الحياة المحيطة بالانسان فى بناء صور تعبيرية مؤثرة أدعى إلى الاقناع وأدخل إلى التأثير فى النفس .

قال تعالى فى سورة « ق » :

﴿ فنزّلنا من السماء ماءً مباركا فأنبتنا به جناتٍ وحب الحصيد ﴾ ٩

وقال تعالى : **﴿ رزقاً للعبادِ وأحيينا به بلدة ميْتاً كذلك الخروج ﴾** ق ١١

الآية وردت فى سورة ق . وهى سورة مكية تعالج أصول العقيدة الاسلامية . ولكن موضوعها يكاد ينحصر فى اثبات قضية البعث والنشور تلك القضية التى أنكرها الكافرون .

قال تعالى : **﴿ أإذا متنا وكُنّا ترابا ، ذلك رجع بعيد ﴾** ق ٣

ولقد عالج القرآن القضية فى برهان ناصح وحجة دامغة .. وفى أداء تعبيرى معجز ، أداء يهز النفس والقلب معا – ويملك على الحس أقطاره .. وفى خلال السياق تتعدد آيات الله وقدرته ، كما تتحدد مصائر الأمم السابقة

---

(٢٨) المصدر نفسه ٣١٢٦ .

المنكرة للتوحيد . الماء والأرض .. لفظان يتكرران ، ويتصاحبان كلما جاء الحديث عن تذكير الله لعباده بنعمه ، أو جاء ليوضح قضية الإحياء والموت . فالماء الذى ينزل من السماء مبارك .. فيه النفع والخير . وهو آية تحيى القلوب الميتة ، كما تحي الأرض الميتة .. إنه مبارك لأنه سبب من الله لإنبات النبات وجعل الأرض مليئة بالجنات وحب الحصيد .. هذا الماء المبارك يحدث الصورة الحسية التشخيصية ... فالأرض فى تحولها من جدب إلى خصوبة مترعة بالخير .. الأرض الميتة الجدباء الجافة المتشققة ، اتخذت صورة الانسان فى حالتين .. حالة الموت وحالة البعث .. لقد جرى على الأرض ما يجرى على الانسان .. فالحياة والموت صفتان لازمتان للانسان .. استعارهما الأداء القرآنى إلى الأرض ليرسم فى صورة مشخصة تلك القضية التى ينكرها الكافرون .. وتنتقل الصورة المشخصة إلى صورة تخيلية تقرب الهدف الدينى إلى الذهن .. حيث يصبح إحياء الأرض وموتها فى صورتها الانسانية المشخصة وهى صورة مشاهدة بالعين .. وسيلة إلى الصورة الأخرى .. صورة البعث .. الاحياء بعد الموت .. لقد وضح البعيد بعقد الصورة القريبة المشاهدة .. يقول ابن كثير : وهذه الأرض الميتة كانت هامدة فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .. فهذا مثال للبعث بعد الموت ، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيى الله الموتى)[٢٩]

ولننتقل نقلة إلى جانب آخر من جوانب التشخيص فى الآخرة .. لنقف على بعض الصور التعبيرية لمفردات مشاهد القيامة فى هولها ورجفتها ..

---

(٢٩) مختصر تفسير ابن كثير جـ٣ ٣٧٢ الصابونى .

قال تعالى : ﴿ **يومَ نقول لجهنم ، هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ ق ٣٠

إنه يوم رهيب ..

إن الصورة التعبيرية المشخصة لجهنم تلقى بالرعب فى القلوب .. إنها كائن حى .. ضخم مهول لأنهاية له ، يفغر فمه الواسع الممتد .. فيبدو القاع بلانهاية . تتلمظ الشفاه طالبة المزيد والمزيد ... هذا الكائن الحى العاقل – الذى اتخذته جهنم يوم القيامة – كان طرفا فى الحوار .. والحوار يكون فى إطار بشرى .. يقول الله سبحانه ... لجهنم .. هل امتلأت . ! وجهنم التى يلقى إليها بالأفواج الكافرة ، فوجا بعد فوج وأمة بعد أمة ، تتلمظ فى عجلة ، وفى شراهة ، وترد على ربها فى إيجاز سريع يفى بالغرض : رباه هل من مزيد . ! ... وما أبدع التصوير وأروعه .. وما أشد الرعب الذى يتغلغل فى القلوب والعقل البشرى يتخيل جهنم فى هذه الصورة التى لاتكف عن التلحظ والابتلاع .. إنها تهضم / حرقا كل مايرد إليها .. والآية (على التمثيل ، وإنها تصوير لسعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقى فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم[٣٠]) .

ويقول الزمخشرى (وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب وتثبيته[٣١]..!) والحوار الذى دار بين الله وبين جهنم ، أنشأ لنا صورة وضحت الموقف تماما ومثلته ، ووضح مدى الهول الناشب فى النفس والقلب من صورة جهنم . فالحوار يدور بين الله عز وجل وبين جهنم . فينشىء لنا الحوار صورة بعد صورة فنتمثل الموقف تمثلا واضحا (فالله يعد جهنم بالامتلاء من الكافرين والعصاة ، وجهنم لاينفذ وقودها ، ولايضيق مكانها ، فتطلب المزيد حتى تمتلىء ، ولاتجد مكانا

(٣٠) صفوة التفاسير جـ٣ ٢٤٦ .

(٣١) الكشاف جـ٤ ص ٢٤ .

للمزيد بعد امتلائها ، حياة وحركة ، أضفاها الحوار ، وتجاذب الحديث مع مَنْ لاينطق ولا يتكلم ، فأعطانا هذا الحوار صورة رائعة لتمثل هول الجحيم ، وعنفها ، وشدة سعيرها)[٣٢]

وثمة آيات أخرى تصور جهنم تصويراً مشخصا ..

مثل قوله تعالى : ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً** ﴾ الفرقان : ١٢

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ** ﴾ الملك : ٨

وقوله تعالى : ﴿ **إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى** ﴾ .. المعارج : ١٥ : ١٨

وفى يوم القيامة ، يضطرب كل شىء .. ويستبد الخوف بكل شىء .. الجماد والانسان .. وتتحول الجمادات إلى كائنات عاقلة ، تخاف ، وترتجف ، وتتزلزل .. وتذوب . وتشهق وتنتفض وتصطك ، .. إنه بعث للحياة فى الجماد .

قال تعالى :

﴿ **يوم ترجفُ الأرض والجبال ، وكانت الجبال كثيبا مهيلا .** ﴾[٣٣]

... فى هذا اليوم الهائل .. كيف تكون الأرض والجبال ؟ .. إن الأرض تضطرب ، والجبال تتزلزل .. ويتحول كل شىء إلى فتات ورمال سائلة .. هاهى الأرض من شدة الهول ترتجف ، وهاهى الجبال على امتدادها وثقلها

---

(٣٢) القرآن والصورة البيانية ص ٢٠٨ .

(٣٣) المزمل ١٤ .

وضخامتها ، وعلى الوصف الملازم لها بأنها رواسى .. تصطك وترتعش ، وتنهار ، وتتحلل وتخيس فى الأرض ..

إن ذلك كله يشبه الانسان فى ارتجافه ، واصطكاك أسنانه حين يصيبه الخوف والهلع ، ويستبد به الأمر الهائل المخيف .. والرجفة من صفات الأحياء .. وهى صفات حيَّة بعيدة عن صفات الجماد فى تماسكه وصلابته وبلادته .. (ولكن التعبير القرآنى .. بعث فى الجماد حياة ، ونفخ فى الطبيعة روحاً ، فاستحالت آدميا يجرى عليه ما يجرى على الأحياء)[٣٤]

---

(٣٤) القرآن والصورة البيانية ٢٠٩ .



الفصل السادس

التصوير الحسي والتجسيم

التصوير الحسى والتجسيم

إن التصوير الحسى جانب بارز فى التعبير القرآنى ، يرمى إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس وهو وسيلة لتقريب المعانى ، وعقد علاقات متخيلة بين محاور حسية أو معنوية .. والتشبيه هنا أدخل فى هذا الباب .. حيث تتبدى المعانى والحالات والأشياء صوراً وهيئات ذات إطار حسى مجسم .. وفى هذا الجو الحسى المفعم بالتصوير والتخييل وعقد المقارنات ، تتخذ الكلمات فى التشكيل شكلا دلاليا عضويا متميزا ، بحيث تصبح الدلالات الحسية والخيالية والمعنوية متعانقة تعانقا ملحا فى مجال الصورة كدلالة عامة ..

ولقد جاءت الصورة فى القرآن لتوضح هذه الدلالات على اختلاف أنواعها ومراميها لتعطى لنا عن طريق التشبيه الحسى الصورة المجسمة المؤثرة فى النفس .. إن أغلب الصور القرآنية عامرة بنبض الحياة فياضة بالحركة ، وهذه الحركة هى التى يسير عليها التصوير فى القرآن (لِبَثِّ الحياة فى شتى الصور مع اختلاف الشِّياتِ والألوان)[1] ولاشك أن التجسيم أحد ملامح هذه الصور الحسية وهو الأسلوب المفضل فى تصوير القرآن . والتصوير عن طريق التجسيم يتجلى فى التشبيه الحسى كما يتجلى فى تجسيد المعنى .. ولنأخذ نماذج من القرآن تبرز لنا هذا الجانب التصويرى الأخاذ . مع العلم أن هذا اللون يستمد عناصره من الطبيعة . من نبات وحيوان وجماد وأن الصورة تمتزج امتزاجاً كاملاً بحيث يبدو طرفا الصورة متحدين لإبراز المعنى المطلوب وتقويته ، فتصبح الصورة دقيقة ، واضحة ، أخاذة كما تقوم الألفاظ بدورها فى رسم ظلال الصورة وملامحها وأشكالها وألوانها .. وهو

---

(١) التصوير الفني ص٧٢ .

فى النهاية يهدف إلى التأثير فى النفس كما يهدف إلى (تمثيل الغائب حتى يصبح حاضراً ، وتقريب البعيد النائى حتى يصير قريبا دانيا)[٢] .

ومن مقومات التصوير الفنى ابراز التجسيم فى حالة الصيرورة والتحول .

قال تعالى :

﴿ أذلك خير نزلاً أمْ شجرة الزقوم ، إنَّا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجـــرة تخرج فى أصل الجحيم طلعهـــا كأنـــه رءوس الشياطين . ﴾ الصافات ٦٢ : ٦٥

الآية من سورة الصافات : وهى مكية تتناول بناء العقيدة ، وتخليصها من شوائب الشرك . وتشير إلى ماكان يعتقده الجاهليون من القرابة بين الله والجن ، وزعمهم بأن الملائكة إناث وهن بنات الله ... ولقد ورد المعنى فى آيات أخرى مما يدل على فساد المعتقد الدينى . ومن ثم كان بدء السورة بالقسم بالملائكة وطوائفها . كما تؤكد الآية فى سياقها على مشهديْن مهمين . المشهد الأول هو جزاء الصالحين المؤمنين بالله والموقنين بالبعث ، ذلك الجزاء الذى نعموا فيه بجنة وارفة مثمرة وشراب صافٍ لذيذ وبحُورٍ عين كأمثال اللؤلؤ المكنون .. **والمشهد الثانى** موضوع الآية . هو جزاء المكذبين بالله وبالبعث . ذلك الجزاء الأليم القار فى جهنم شرابا وطعاماً ونزلا ..

والسورة تمتلىء بالجمال التعبيرى شأن السور المكية ، التى تتميز بالقصر والإيجاز والإيقاع والصور الحسية المبهرة .. ومن هذه الصور الحسية صورة شجرة الزقوم طعام الكافرين المنكرين فى جهنم .. والشجرة

---

(٢) التعبير الفني في القرآن ١٩٥ .

فتنة للظالمين .. ومحنة لهم منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .. (والطلع للنخلة ، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض .. وإذا صورة المصورون جاءوا بصورته على أقبح مايقدر ، وأهوله)[٣] .

وفى الحديث الشريف مايدل على قبح الشجرة وسوءها (لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن تكون طعامه)[٤] وحين سمع الكفار باسم شجرة الزقوم سخروا وقالوا : كيف تنبت شجرة فى الجحيم ولاتحترق ، وقال أبو جهل ساخراً يامعشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ! إنها عجوة يثرب بالزبد . والله لئن استمسكنا منها لنزقمنَّها تَزقّما . وفى الحقيقة فإن شجرة الزقوم التى وردت فى الآية غير ماكانوا يعرفون .

إن مجرد تصوير الشجرة بهذه الصورة الحسية المخيفة ، يثير الفزع والرعب والخوف ، وهى طعام دائم لأهل الجحيم ، مما يزداد الرعب والخوف وتحصل الرجفة الشديدة فى النفس ، ويتحقق الامتعاض والاشمئزاز والنفور من هذا الطعام الذى يتخذ شكل رءوس الشياطين فى قبحها المتناهى ، وفى الخوف المصاحب بهم لمجرد ذكر الشياطين .

إن الآية تصور ماتناهى قبحه بما يمكن أن يُتخيّل كوجه الشيطان ورأسه . وهو تصوير درج عليه العرب فى استعظامهم للأشياء .. واستهوالهم لها .. وتحدث فى شأنه البلاغيون وأتوا باستشهادات تدل على هذا المعنى .. كقول امرىء القيس

---

(٣) الكشاف جـ٣ ص ٣٠٢ .

(٤) صفوة التفاسير ص ٣٦ جـ٣ .

أيقتلنى والمشرفى مضاجعـــى ومسنونة زرق كأنياب أغـوال

والغول : أحد المستحيلات الثلاثة ويضرب به المثل بالبشاعة والرهبة والتخويف .. ولشدة الصورة الحسية ، وردت شجرة الزقوم فى موضع آخر . ليضاف إلى المعنى دلالة جديدة .. بحيث تبدو لنا مجسمة شديدة التجسيم ...

فثمة شجرة هائلة ضخمة ، تنبت فى قاع الجحيم ، ثمارها هائلة بشعة تشبه فى بشاعتها رءوس الشياطين .. وهى كطعامها المذموم الذى لو قطرت منه قطرة فى بحار لأفسدتها كما جاء فى الحديث ، تحتاج إلى شراب ، والشراب ساخن يغرى الأجسام على مهل فيحدث العذاب الشديد الذى لايطاق ، ويظل المشهد متواصلا ... الطعام زقوم ، الماء جحيم آسن ، والعطش على أشدّه والعذاب قائم لاينتهى .. ماأروع الصورة الحسية وما أعظم المشهد الذى ينكفىء فيه المجرمون على طعام وشراب صنيعة الجحيم .

قال تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم** ﴾ الدخان ٤٣ :٤٦ .

قال القرطبى : وشجرة الزقوم هى الشجرة التى خلقها الله فى جهنم ، وسمّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغلت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار ، وشبه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب ..

ولقد جاء التصوير القرآنى للحياة فى غاية الإمتاع والإعجاز معاً .. فالحياة ببهرجها وجمالها واتصال الحياة فيها بالمال والبنين والأنعام والجنات ذات الثمار اليانعة ، والأنهار الجارية .. صورة لاتخطئها الحاسة البشرية فى

تنوعها وحركتها وجمالها وألوانها وصيرورتها .. ومن ثم ضربت مثلاً واصحاً للإقناع والتأثير معاً .

فالصورة فى هذا المجال تخاطب العقل بمدركاته وحواسه والوجدان بانفعاله ومشاعره .. والغرض من ابراز هذه الصورة المتكررة ، إن الدنيا بما فيها من فتنة تصرف الناس عن الحق ، وتقف سدًّا أمام منابع الايمان وينابيعه ، سرعان ما تزول وتنتهى ، ويتلاشى بريقها وخداعها ..

ومن أجل هذا المعنى ... جاء التصوير فى جانبه الحسى غالبا يتضمن مفردات حسية ذات طابع جمالى ولكنه لادوام له .. ولابقاء لجماله ... بل لجماله دورة تنتهى لامحالة وانتهائها ماثل أمام العيان ... تدركه الحواس وتلمسه مجسَّداً تمام التجسيد .. ولقد جاءت المفردات التجسيدية متضمنة ، الأرض ، والماء ، والنبات ، فى فعل اهتزاز لحركة الحياة فى خصوبتها ثم تحولها إلى التلاشى .. وصاحبت مفردات الهباء ، الهشيم ، الاصفرار ، الحطام ... لتوضح حركة التلاشى كلية ..

قال تعالى :

﴿ إنما مثل الحياة الدنيا ، كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها .. وازَّيَّنت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليْلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصلُ الآيات لقوم يتفكرون ﴾[٥]

نحن الآن أمام مشهد تصويرى يموج بالحركة ، مشهد مجسّد كأنه ماثل أمامنا بجرمه وثقله وتواجده وجوانبه .

---

(٥) يونس ٢٤ .

جاءت الآية الكريمة فى سياق قرآنى يؤكد على أن الحياة الدنيا متاع ... الحياة متاع .. ومهما طال فهو فانٍ ومردود .. ثم إلى الله المرجع .. فماذا تساوى تلك الحياة المتاع ؟! .. إنها سرعان ماتزول ويضيع الجمال والزينة والخداع فيها ... ومن هنا نصل إلى المشهد التصويرى الحافل بالحركة والحياة والنمو ، مشهد ماثل أمام العين كلما طلعت الشمس أو غربت ..

الحياة الدنيا التى لايملك الناس فيها إلا متاعها ، ومظاهرها ، وينغمسون فى لذاتها ، فتغريهم وتخدعهم وتصدهم عن الحق .. مثلها مثل الماء الذى ينزل من السماء .. هاهو المطر يتساقط فتتلقاه الأرض فاتحة مسامها .. تستخلصه لها ، فينجم منها النبات طريا عفيّا جميلا ، يمرع ويزهر ويثمر مختلف الثمار والألوان ، فيقبل عليه الناس فى فرح يأكلون وينعمون .. وتصبح الأرض وقد كساها الثوب الأخضر الجميل ، المطرز بالزهور والثمار والألوان . بهيجة فرحة مزغردة كأنها عروس قد تزينت بكافة وسائل الزينة .. يحيطها الأهل والأحباب فى فرح وزهو بجمالها ومنظرها الخلاب .. يزفونها إلى زوجها .. والناس وهم يرون هذا البهاء الحسى كاملاً ، يظنون أنهم بما فعلوا ، وبما قدموا من جهد ، وراء هذه الزينة البادية الآسرة ، وأنهم أصبحوا أصحاب الأمر ، والسلطان ... وأنه لاينازعهم عليها منازع .. وإن النَّمَاءَ دائم ومترع .. وفى وسط هذا النماء والخصب .. وفى نشوة الفرح والبهجة ، وفى غمرة الاطمئنان .. يتحول كل شىء وفى ومضة سريعة ، حين جاء قدر الله وقضاؤه فأهلك الأرض وما عليها من نبات وجمال .. فبدت حصيداً مشت فيه المناجل والأسنة ، فلا حياة ولا جمال .. إنما موات وموات .. وكأن هذه الأرض لم تكن يوما عامرة بالجمال كله ... وكأنها لم تغن بالأمس .. ولعل فيما حدث للأرض مثلًا يتعظ به من يتفكر ويعتبر .

تلك حياة الدنيا والله عنده دار السلام ، حيث الأمان والطمأنينة . (فيا لبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس فى لحظة ، وقد أخذت زخرفها وازَّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هى حصيد كأن لم تغن بالأمس . ودار السلام التى يدعو إليها الله ويهدى من يشاء إلى الصراط المؤدى لها ، حينما تتفتح بصيرته ويتطلع إلى دار السلام[6])

قال تعالى :

﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدى مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾[7]

إن الصورة المجسمة قد استوفت أبعادها ..

فها هى الحركة المجسدة تظهر فى كل شىء .. حركة تنبىء عن الفعل والنمو والحياة فسقوط المطر حركة ، ونمو النبات حركة ، واتخاذ الزينة حركة ... حصد النبات وإهلاكه حركة .. ولكنها الحركة الواحدة الفاعلة التى تتخذ من هذه الجزئيات وسائل لها .. ولقد اتخذت الحركة . بطبيعتها وسيلتها المادية ، المطر ، الأرض ، النبات ... وكشفت الصورة المجسمة فى حركتها .. داخل النفس ووجدانها ... فهاهو الفرح . والبهجة .. وتمضى مع الوجدان حتى فى لحظة تحوله إلى غرور بالتملك والاستحواذ .. وتخيل صورة الناس وهم يقفون أمام منظر جميل مرفوعى الرأس يتصورون أنهم مالكوه .. كما لم تنس الصورة ظلالات الألوان .. التى تتبدى فى صورة النبات والأزهار والثمار ، مما يبهج النفس ويشعل الوجدان ويؤصل صفة الغرور والزهو .. وانظر معنا إلى الحركة الخفية المنبعثة من تداخل المواد .. إنها حركة الصوت مجسدة فى سقوط الماء ، وحركة القوم

---

(٦) الظلال جـ٣ ١٧٧٥ .

(٧) يونس ٢٥ .

والأنعام ، وحركة الحصيد .. أصوات .. تتعالى .. مبهجة فى جانب ، ثم حزينة فى جانب آخر .. ثم انظر إلى المعنى العميق فى الصورة .. لتتجلى العبرة والعظة ، والهدف الدينى الذى سيقت من أجله الآية فى صورتها التعبيرية الأخاذة ..

ولقد جرى البلاغيون القدماء وراء الجزئيات واعتمدوا التشبيه وأولوه بتأويلات عقلية ، بحته .. « فالرمانى » يرى أن التشبيه فى الآية ، مما لم تجر به العادة بما تجرى به العادة .. (وقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده وفى ذلك العبرة لمن اعتبر .) وما قاله الرمانى موجز غاية الايجاز ولكنه يعجز عن بيان مافى الآية من تصوير حى مجسد ..

والزمخشرى يقترب من الصورة ولكنه يقف أيضا عند الحدود البلاغية للتشبيه ولكنه يدرك الصورة إدراكاً عاماً .. يقول (هذا التشبيه المركب شبهت حال الدنيا فى سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض فى جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ..) كما أن الأرض أخذت زخرفها (على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين)[8]

ومن الآيات التى صورت حال الدنيا ومتاعها قوله تعالى :

﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباتُه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغُرور . ﴾[9]

---

(٨) الكشاف حـ٢ ص ١٨٧ .

(٩) الحديد آية ٢٠ .

الآية من سورة الحديد وهى سورة مدنية تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه وبناء المجتمع على أساس العقيدة الصافية ولقد جاءت مفردات الصورة لتتلاءم مع جو التربية والتهذيب والتوجيه .. فالحياة الدنيا هنا تضمنت أوصافاً محددة .. هى اللعب ، واللهو ، والزينة ، والتفاخر والتكاثر .. وهى صفات مذمومة لأنها تشعر بالاغراق فى اللذة ، واللجوء إلى النعيم الدنيوى ... وشيوع صفات بعيدة عن الجو الدينى الصافى .. فاللعب جهد مبذول لاطائل وراءه .. كلعب الأطفال واللهو إشغال الإنسان عن طاعة الله ، والزينة مدعاة إلى التجمل بالملابس والبناء ، والتفاخر : افتخار ومباهاة بالحسب والنَّسَب ، والتكاثر مباهاة بالأموال والأولاد .. وكلها صفات كما يرى ابن عباس ظلمات بعضها فوق بعض ...

فالدنيا فى الحقيقة – مهما بدت فى العيون جميلة مبهجة – ليست إلا محقرات ، أمام الآخرة فهى أمور عظيمة ومن ثم جاء التشبيه كما يرى الزمخشرى ليبين (حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات فبعث عليه العاهة فهاج وأصفر وصار حطاما عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة)[10]

إن المثل مضروب على عادة التعبير القرآنى ..

وهو مثل حسى مجسم غاية التجسيم ... هاهى الدنيا التى تجذب الناس إليها فيلعبون ويلهون ويتزينون ويتفاخرون بالحب والمال والولد ظنا أنها دائمة ثابتة ، سرعان ماتتلاشى ويضيع كل شىء ، فلا ينفع الناس مال ولا ولد .. إلا من أتى الله بقلب سليم ... هذه الصورة فى زهوتها وجمالها ولهوها كصورة الغيث تغاث به الأرض فينمو النبات جميلا طريا تيَّاهاً بنفسه يخلب النظر

---

(١٠) الكشاف جـ٤ ص٦٧ .

بحسن مرآه ، ثم تتسرب إليه عوامل الفناء شيئاً فشيئاً فيصفر بعد خضرة وييبسُ بعد نضرة ، ويصير فى النهاية حطاماً وهشيماً تذروه الرياح .. والعيون تترصده فى بهجته ونمائه وفى صفرته وحطامه فيمشى الحزن فى النفوس ، ويتغلغل الألم .. وهكذا ففى هذه الصورة المجسمة تتبدى الدنيا ، كمتاع غرور ،استمدت قوتها من هذا الخداع فوقع الناس فى شركه إلا من عصم الله ..

ويرى سيد قطب رحمه الله . إن الصورة تصور حقيقة مشاهدة لاتخطئها الأبصار (حقيقة حين يتعمق القلب فى طلب الحقيقة . حقيقة لايقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولا إهمال عمارتها أو خلافتها التى ناطها بهذا الكائن البشرى ، إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائع وجاذبيته المقيدة بالأرض .. هذا الاستعلاء الذى كان المخاطبون بهذه السورة فى حاجة إليه ليحققوا إيمانهم . والذى يتحاج إليه كل مؤمن بعقيدة ، ليحقق عقيدته ، ولو اقتضى تحقيقها أن يضحى بهذه الحياة الدنيا جميعا)[١١]

إن الصورة الحسية تتجه إلى بسْط المعانى النفسية ، وتوجيه للحقائق الكونية والروحية ، وتأكيد للعبرة والعظة .. ولقد جاءت الصورة الحسية لتجسم المعانى تجسيما واضحا ، تتخذ سمة الشىء وهيئته .. فيصير المعنى لافتا للذهن . دافعاً إلى التأمل فى الكون .

قال تعالى تصوير حال المنافقين .

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلمَّا أضاءت ماحوله ذهب

---

(١١) الظلال جـ٦ ٣٤٩١ .

الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . ﴾[12]

وقال تعالى :

﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيطٌ بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إنَّ الله على كل شىء قدير ﴾[13]

الآيات تكشف عن طبيعة المنافقين وترسم لهم – فى نفاقهم – صورة حسية غاية فى التجسيم والتجسيد ، بحيث توحى بخطورة ما يقوم به المنافقون من إحداث الفتن فى صفوف المسلمين .. فلقد ضل المنافقون ، وكانوا يملكون أن يهتدوا ولكنهم فضلوا أن يلعبوا هذا الدور الضال . وهم – كطبيعة بشرية – تعتبر الهدى والضلال مقايضة وتجارة . إنهم يكسبون من كليهما .. لأنهم يعيشون جانبين من النفس ، الجانب الظاهرى ، والجانب الخفى ، ويتعاملون مع هذين الجانبين بمنطق التاجر ، الذى يسعى إلى الربح إننا هنا – فى نظر المنافقين – أمام بضاعة معروضة ، إن أقبلوا عليها أرضت نفراً من الناس ، وإن أعرضوا عنها أرضوا نفراً آخر ، فلماذا لايجمعون الرضى دفعة واحدة ولو خسروا الصدق مع النفس ، إنهم لاشك سيربحون .. ولكنه الربح الذى لايثمر إلا هباءً ونفاقاً ، لأنهم موزعون بين الحق والباطل ... تلك تجارة خاسرة لايجنون منها شيئا .. وانظر كيف صاغت الآية الحق والباطل فى مجال النفاق كبضاعة مشتراة تحتمل الفصال والمنازعة والمبادلة .. ولكنهم كطبيعة المنافقين ، انحازوا إلى الباطل ظناً فى الربح . لقد اختاروا ماتلاءم مع الطبع الفاسد فأفسده أيضا علاوة على فساده ...

---

(١٢) البقرة ١٦ – ١٧ .

(١٣) البقرة ١٩ – ٢٠ .

إن المنافقين يتأرجحون بين الحق والباطل ، ويسعون إلى طلب الحق وفقا للهوى .. إن المنافق يستضيء بنور الحق (ولكن ما أن يبدو النور حتى يصاب بالعمى بسبب الهوى الذى يسيطر على قلبه ، فيضيء النور ما حوله ، ولايستضيء به وهو الذى استوقد النار)[١٤] وطلبها نوراً ودفئاً ، ولكنه يصبح أصم لايسمع لنداء الحق ، أبكم لاينطق بالحق ، أعمى لايميز بين الأشياء ، مطموسة بصيرته ، لايفرق بين باطل استهواه وبين حق أبلج .. هذا المنافق الذى وقع فى دوامة الحيرة بين الحق والباطل يتساوى فى صورته بصورة الذى استوقد النار ... وطلبها وفجأة يعم الظلام ويخيم على المكان ويذهب بالنور الذى طالبوا به ..

قال ابن كثير : ضرب الله للمنافقين هذا المثل فشبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله وانتفع بها ، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله .. فبينما هو كذلك إذ طفئتْ نارُه وصار فى ظلام شديد . لايبصر ولايهتدى ، فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغىّ على الرشد ، وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات الشك والكفر والنفاق لايهتدون إلى سبيل خير ولايعرفون طريق النجاة)[١٥]

وتمضى الآية الثانية فى سياق المعنى القرآنى لترسم صورة حسية أخرى تمثل الموقف تمثيلا قويا ، وترسم لنا أشكال وهيآت هؤلاء المنافقين وقد وقعوا فى براثن الحيرة والتردد والتشكك والظهور بمظهرين كليهما مخادع .. وانظر إلى الصورة المخادعة التى رسمتها الآية .. لتنطبق حسيا

---

(١٤) القرآن المعجزة الكبرى ص٢٥٣ .

(١٥) مختصر ابن كثير جـ ١ ص٣٦ .

على هؤلاء .. فثمة قوم أصابهم مطر شديد . المطر ينصب انصباباً ، يتساقط من سحب سوداء داكنة الظلمة ، غطى الأرض بظلام دامس .. لقد تراكم الغمام فأظلم ، وتراكمت الظلمة فاشتدت ، واختلطت السحب المتراكمة وتدافعت فى حركة قوية ، صاحبها رعدٌ يصك الأذن ، وبرق يخطف البصر .

فالصواعق تدعم المكان ، وتصيب القوم بالفزع والخوف والدوىّ الهائل .. وتتحرك أيديهم حركة تلقائية إلى الآذان .. فى اضطراب وخوف ، تحاول أن تمنع العذاب المنتظر أو تقلل من حدة الصوت وصخبه . وكادت الأصابع تتداخل فى أعماق الأذن حتي تخترقها .. إنهم من الخوف مزلزلون .. يأتيهم الموت مظلما ، وراعداً ، وبارقاً .. وكأنهم ينتظرونه ، فهم واقفون تحت مشيئته ...

وفى هذا تصوير لنفس منافقة ، تائهة ، فارغة ، لاتستقر على حال ولاتطمئن إلى قرار . إنهم مضطربون لأنهم لايؤمنون ، فالإيمان طريق الطمأنينة والسكينة . (وإذا كان التشبيه السابق يصور حالهم فى طلب الدليل وعدم الأخذ به لغلبة الهوى ، وسيطرة الشهوة ، والجحود الموروث ، فهذا التشبيه يصور حالهم من هلع مستمر ، وخوف من غير مخوف ، ولذلك يقول بعض علماء النفس : إن النفاق منشؤه ضعف فى النفوس)[١٦]

وهاهو البرق شديداً قويا لامعاً يكاد يذهب البصر .. يخرج من بين ركام الغيم فيضى الطريق . فيمشوا فى ضوئه .. مهتدين به .. ولكنه حين يختفى يكفون عن السير ويثبتون فى مكانهم .. لقد وقعت حركتهم فى شلل مستمر وفعل متأرجح مرتبط بظهور البرق واختفائه .. (فإذا صادفوا من

---

(١٦) القرآن المعجزة الخالدة ص ٢٥٤ .

البرق لمعة انتهزوها فرصة وخطوا خطوات يسيرة ، وإذا خفى وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا فى أماكنهم خشية الوقوع فى حفرة ..)[١٧] .. والصورة تصوير لحال المنافقين فى ترددهم وحيرتهم .. فهم حينا يهتدون بالنور ، ولكن سرعان ما تظلم نفوسهم فيظلون على نفاقهم .. ولو شاء الله - وهو القادر - لأفقدهم السمع والبصر على الحقيقة .

كما أن الصورة توضح أن أسباب الهداية بين أيديهم وهى فى ذاتها مضيئة ، ولكنها تظلم عليهم فيستمرون فى نفاقهم وغيّهم .. إن المشهد عامر بالحركة واللون والصورة والوجدان .. ولقد تضافرت هذه العناصر لتجعل منه مشهداً حيًّا يفيض بالحياة والحركة (إن هذه الحركة فى المشهد لترسم عن طريق التأثر الإيحائى ، حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التى يعيش فيها أولئك المنافقون ... فهو مشهد حسى يرمز لحالة نفسية .. ويجسّم صورة شعورية ، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة التى تجسم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس)[١٨]

ومن قبيل هذه الصورة المتراكمة ، فى جزئياتها ، ونسقها ، ماصورت به الآيات القرآنية أعمال الكفرة التى تتخذ شكل البر والخير ... ظنا منهم أن فيها نفعاً ، أو نجاة من العقاب الإلهى فى الآخرة .

قال تعالى :

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلماتٌ بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومنْ لم

---

(١٧) صفوة التفاسير جـ ١ ص٣١٨

(١٨) الظلال جـ١ ص٤٦

يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[19]

سياق الآية جاء بعد ذكر حال المؤمن الصالح ، الذى وفاه الله حسابه .. والآية ترسم لنا مشهدين حافلين بالحياة والحركة فى صورتين مجسدتين .

الصورة الأولى :

إن عمال الكفرة التى قد يتصورونها خيراً وبركة ، وأنها تنجيهم من عذاب الله فى الآخرة ، أعمال محبطة ، لافائدة منها ، ولا فلاح فيها .. لقد ضاعت الأعمال والآمال وتلاشى الأمل بالفوز والنجاة .. مثلهم مثل الظامىء الذى وجد سرابا يلتمع فى فلاة تقتل الإنسان بحرّها ، سرابا بدا على بعد كالماء الرقراق ، فيلتمع فى ذهن الظامىء صورة الماء المتراكم فى قيعة ، فيجرى متلهفا طالباً الماء ، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة متضادة تجهز على الأمل ، وتحبط الرغبة ، فها هو يصل إلى المكان الذى تصوره ماءً فإذا به (يجد المفاجأة المذهلة التى لم تخطر على البال ، المرعبة التى تقطع الأوصال ، وتورث الخبال « ووجد الله عنده » ، الله الذى كفر به وجحده وخاصمه وعانده ، وجده هنا لك ينتظره .. فوفاه حسابه)[20] .

وهكذا يتحرك المشهد حركتين ، حركة اللهفة ومن ثم نلمح السرعة فى الحركة . واللهفة ترسم فى الخيال صورة جميلة ، هى فى الحقيقة إنقاذ للظامىء من صوت مؤكد فى الصحراء .. ومن ثم نجد الدافع النفسى إلى الإسراع للقبض على هذا الأمل ..ونجد عبارة (يحسبه الظمآن ماء) كاشفة حال النفس فى توترها وخوفها وأملها – فنفس الظامىء واقعة بين فعلين هما الموت / الأمل . ثم نجد الصورة تنقلب فجأة فإذا الأمل سراب . مثله مثل

---

(١٩) سورة النور ٣٩ ـــ ٤٠ .

(٢٠) الظلال جـ٤ ٢٥٢١ .

سراب الماء . ويتحقق الفعل الأول وهو الموت .. إبراز لحقيقة عمل الكفار .. فلا أمل فيه ولا خير .. إنه عمل ميّت إن صح التعبير .

وفى حركة النفس الانسانية بين الخوف من الموت ، والرغبة فى الحياة ، تأتى المفاجأة . لقد حل الفعل الإلهى ، وتواجد وجوداً عينيا أو شبيها به . بغتة سريعة ، فالله بالمرصاد . وفاه جزاء الفعل .. فعل الكافر المراد فى الآية .. والذى تصوره خيراً .

وتنقلنا الآية إلى مشهد آخر وصورة أخرى ... مشهد تراكمت الأشياء فيه بعضها فوق بعض .. كأعمال الكفرة المتراكمة .. فالصورة حافلة ، يتسيَّدها اللون والحركة .. أما اللون فيتمثل فى الظلام الدامس الذى لايرى الانسان فيه يده .. وأما الحركة ففى ذلك التدافع الرهيب الذى يأخذ بأقطار النفس .. تدافع الموج وتراكم السحاب .. وتلك الحركة مصحوبة بدوى هائل يصك المسامع ويلفت الانتباه .

إن جزئيات الصورة تشير إلى المعنى المراد من أعمال الكفرة التى جاءت نتيجة ظلمة نفسية ، وضلال دينى .. فمهما تراكمت الأعمال التى يرونها خيراً .. فإنها قطع من الظلام ، ومهما صاحب الفعل من دوى لإعلان الأعمال .. إلا أنه دوى ناتج عن حركة نفسية مظلمة ، تكشف قاع النفس وغورها .. إنها نفس ضالة مظلمة جنحت فلم تهتد بنور الله .

إن الظلم ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض فى الكون .. وضلال لايرى فيه القلب علامات الهدى وهى قريبة .. فالظلمة تطبق بعد الالتماع السرابى الكاذب ، ويتبدى الهول الشديد فى تلك الظلمات ، ظلمة البحر اللجى تدافعت أمواجه وتراكمت ، موج من فوقه موج ، ويظلل المشهد سحاب كثيف يحجب النور والضياء ، فتتكاثف الظلمة وتشتد ، وكأنما تلمس باليد . وتمتد اليد ، أمام العين فى حركة تحقق للرؤية ، فلا ترى

ولاتشاهد .. وكيف ترى اليد فى هذا الظلام الكثيف الذى شمل المشهد كله » .

وهكذا .. تكشف الصورة عن حقيقة أعمال الكفرة ومعتقداتهم . فمن لم يهده الله للإيمان وينوّر قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبد الدهر .. ولعلنا لو قارنا بين حال الكافر هنا ، وقد افتقد النور والهداية بحال المؤمن الذى غمره النور وشملته الهداية .. لاتضحت الصورة كاملة بين نموذجين بشريين . نموذج المؤمن ونموذج الكافر .. وهذه الأعمال التى تصدر عن الكفرة .. شيء معنوى لايتمكن من نفوسنا ، ولايستقر فى أذهاننا ، إلا إذا أتى فى معرض الحس والمشاهدة . فمرة يشبه بالرماد الذى تذروه الرياح الهوجاء فى يوم عاصف شديد العصف ومرة بأنه السراب الخادع الذى نطمئن إليه ثم تنكشف لنا حقيقتة .. ومرة بأنها الظلمات المتراكمة لانتبين فيها شعاعاً من نور الحق . (وكل هذه صور حسيَة تراها الأعين فتطمئن إلى وقوعها وحتمية مآلها ، وتزيل كل شك وتردد فى ذهن السامع بمصير أعمال الكافرين)[٢١]

إن التشبيه من أدوات التصوير الحسى ، وهو سرٌّ إعجازى فى التعبير .. بما يتضمنه من جمال لفظى ، وإيقاع نغمى وتصوير حى متحرك ، فتبدو المعانى ، والعواطف ، والحقائق المجردة صورة محسوسة ، فى مشهد حى ، كأنه يرى ويلمس ويسمع رنينه .

---

(٢١) القرآن والصورة البيانية ص ٩٦ .

الفصل السابع
الأداء التصويري في آيات الكون والطبيعة

الأداء التصويرى فى آيات الكون والطبيعة

هذا مجال تعبيرى برز فيه التصوير بروزاً واضحاً فى تنوعاته الجمالية . فالقرآن الكريم حافل بآيات الله فى الكون وبمشاهد الطبيعة على تنوعها . بما يلفت الذهن ويثير الحس . فيربى فى النفس البشرية . التروع إلى التأمل وإدراك مظاهر الجمال فى الكون . والجمال من أبرز القيم التى تتسرب إلى دواخل النفوس فتهزها هزًّا . فهو يحمل قيمة المتعة النفسية ودلالة الاستجابة معا . وإذا كانت النفس الانسانية تمر على مشاهد الطبيعة مروراً بارداً من باب العادة ، فلقد حرص القرآن الكريم على سلْخ النفس من عاداتها الرتيبة وإيقاظها من غفوتها الباردة ، لتتفتح على عالم مترع بالجمال والجلال . فالنفس اليقظة المدركة المتفتحة هى التى تنزع إلى الخير والحق والجمال .

والقرآن يدعو الانسان إلى أن تتفتح بصيرته على آيات الله فى الكون ، ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة .. فى أسلوب يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعادتها . (إن أسلوبه الساحر ، وجوّه المشرق ، وروحه الصافية ، لتنقل الانسان نقلا من إلفه وعاداته ، وتهزه ليستيقظ ، تلمس – برفق – أعصابه المكشوفة ، فتعطيه الشحنة كاملة ينقلها إلى مركز الحس بكامل تدفقها . ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة ويستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب)[1] والأداء التصويرى فى القرآن الكريم يتناول آيات الكون فى حركة مليئة بالحياة – جمادها وكائنها – فى تنوع مصاحب ، من لون وصوت ، وحركة وظلال .. وتتأكد فى السياق التصويرى قدرة الله التى خلقت هذه الكائنات كلها وبثت

---

(١) منهج الفن الإسلامي محمد قطب ص ١٤٤ ــ ١٤٥ .

فيها نبض الحياة الهادر فى أسلوب تعبير معجز .

ولنحاول أن نتعرف على صورة الطبيعة فى القرآن عبر نماذج مختارة ، لأن الاستقراء يحتاج إلى دراسة مطولة .. وأننا فقط نشير إلى هذا الجانب الإبداعى فى مجال التصوير القرآنى .

قال تعالى :

﴿ إنّ فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون . ﴾[٢]

إن هذه الآيات الكريمة تنبه حواس الانسان وتفتح عينه ومداركه للتوجه إلى مافى الكون من جمال إلهى . والآيات تتضمن ثنائيات جمالية .. تستحضر الطبيعة فى مظاهرها المبدعة المعجزة .. وفى كل ثنائية يتبدى التصوير الفنى فى أروع مجالاته قاطبة ...

الثنائية الأولى

وتتمثل فى **خلق السموات والأرض ..**

هذا الكون الهائل اللامتناهى العامر بالآفاق والأجرام والنجوم والكواكب يمضى فى تناسق عجيب ، وفى مسرى محدد لايميل ولايختل .. فى فضاء هائل يجذب العين وينفض القلب . فضاء يكشفه سرٌّ إلهى .. وهذه الأرض باستوائها ، وجبالها ووديانها ودوابها ونباتها ، وأعماقها المجهولة تقف فى جمال مستمر تحث العين على التمتع والعقل على التأمل والنفس على الرهافة

---

(٢) البقرة ١٦٤ .

وفيضان الشعور ..

والتعبير فى الآية جاء عاما .. فصلته آيات كثيرات تتناول السماء والأرض فى جوانب تصويرية متنوعة :

قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً** ﴾[٣]

وقال تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومَالها من فروج** ﴾[٤]

تلك هى السماء الهائلة بما فيها من كواكب عظيمة ... هذه الكواكب السيارة .. فى بروجها تمضى بقدرة الله سبحانه .. وتأمل كلمة « بروج » وهى تصور المكان الذى استقرت فيه هذه الكواكب الهائلة .. والبروج هى منازل الكواكب السيارة وهى تشبه — لتوضيح الصورة للذهن — القصور الفخمة التى هى منازل للناس ..

هذه الكواكب العملاقة ، تتزين بها السماء فتبدو فى رقعتها الزرقاء .. والضوء يلتمع فيها .. غاية فى الجمال والروعة الآسرة .. ومن هذه الكواكب مايرتبط بحياة الكائنات على وجه الأرض ، كالشمس ، المتوهجة .. الدائمة التوهج ، الذاتية النور والحرارة تتألق فى كبد السماء ، تشع الحرارة والدفء ، فتستمر الحياة على وجه الأرض . وكذا القمر المنير الذى يكتسب نوره من الشمس ، يتيه بضوئه ليلاً ... ويرسل نوره شعاعاً يخفف من ظلام الليل ، ويجعل الانسان سابحاً فى تأمل المنظر الليلى وسط دائرة الضوء المشعة ..

---

(٣) الفرقان ٦١ .

(٤) ق ٦ .

تلك السماء فى ارتفاعها واتساعها وإحكامها مرفوعة بلا عمد مزينة بمصابيح هى الكواكب والنجوم ، متماسكة ، متواصلة فى تماسكها ومنازلها وحركتها السيارة .. لايصيبها تشقق ولاتصدع ... كل مسيّر وفق المشيئة الإلهية فالسماء صفحة من كتاب الكون ، فيها الزينة والجمال والبراءة من الخلل . فلينظر البشر جميعا إلى هذا الجمال الإلهى .. يظللهم كأنه السقف فيه من آيات البهاء والجمال مايدعو النفس إلى التمتع والقلب إلى النبض والعقل إلى التدبر .. وتناولت الآيات الأرض فى صور متعددة منها :

قال تعالى : ﴿ **والأرض مددناها . وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾[٥]

وقال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جُدَد بيض وحُمر مختلف ألوانها وغرابيب سود .** ﴾[٦]

وهاهى الأرض طرف الثنائية الأولى .. مبسوطة على أرجائها .. مدّها الله وسواها على هيئة تصلح للحياة .. وجعل الله فيها تلك الجبال الثوابت تمنعها من الاضطراب ، والخلل حتى يقر الناس عليها فى قرار هادىء ساكن وديع .. إن الجبال تبدو فوق هذه المساحات الأرضية الممتدة علامات خارقة للقدرة ، وهى أيضا إشارات إلى جمال المكان الذى يتنوع بين الارتفاع والشموخ والامتداد والخضوع ... وتحدث الصورة هزة فى النفس .. وقد كسا هذا الامتداد بانفساحه ووديانه وقمم جباله .. النباتات بما تحوى من جمال فى اللون والشكل وتنوع فى البهاء والحسن .. لوحة مكتملة خالصة فى تكوينها لإبداء جماليات فى المكان . وهى فى المعنى

(٥) ق ٧ .

(٦) فاطر ٢٧ .

العميق دلالة على القدرة الإلهية ..

ويلتقى الجمال فى السماء والأرض ويصنع صورة باهرة .. سقفا مزينا بالمصابيح فى غلالة زرقاء .. يطل من علٍ على أرض ممتدة مركوزة بالجبال مزينة بالنبات البهيج .. فأنى يذهب البصر يجد الجمال ممثلا فى حكمة الخالق .. وانظر إلى المشهد الطبيعى الجميل فى آية فاطر .. لترى التنوع الجمالى ممثلا فى اللون فالنبات الزاهى بلونه الأخضر يخلب اللب ، والثمار على أغصانها تتيه بجمالها ولونها وشكلها الأخاذ .. اللون سيِّد المشهد يتجلى فى الثمار كما يتجلى فى الجبال الملونة الشعاب ما أروع الألوان الزاهية البيضاء والحمراء والسوداء .. والخضراء والحمراء وغيرها .. ممزوجة فى نسق لونى بديع .

تلك لفتة كونية إلى مافى الطبيعة من جمال آسر . لفتة تطوف بالأرض نباتها وثمارها لفتة تجمع بين الحياة فى جمالها وأناقتها وروعتها ، وبين الجماد فى سكونه وشموخه . (واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزًّا ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالى العالى ، التى تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه فى الصخرة ، كما تراه فى الثمرة على بعد مابين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتهما فى تقدير الانسان . ولكن النظرة المجردة ترى الجمال وحدة عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك ، يستحق النظر والالتفات)[٧]

إن ثمة لوحة متسعة ، انسجمت فيها الألوان ، وطرّز كلَّ جانب من اللوحة شكل جمالى ما مختلف عن الآخر .. من سماء وأرض ونبات وجبال .. وحدات متناثرة على رقعة اللوحة .. تنوعت واختلفت ألوانها ..

---

(٧) الظلال ج٥ ص ٢٩٤٢ .

فأصبح التنوع والوحدة محوراً جمالياً أصيلا .

الثنائية الثانية

وتتواصل الثنائية الأولى – السماء والأرض – بغيرها من الثنائيات الأخرى لتوضح أن الوحدة هى الخيط الواصل بينها جميعا وإن تنوعت فى الشكل والوسيلة . وهذه الوحدة هى الدلالة العميقة المصاحبة لكل هذه الأشكال والوسائل فى التعبير عن القدرة وفى التأكيد اليقينى على الوحدانية .

واختلاف الليل والنهار ...

الليل والنهار يتعاقبان ، الليل فى سكونه والنهار فى صخبه ، الظلام الذى تتلألؤ فيه النجوم منيرة كقطع اللؤلؤ والقمر يتهادى فى بحره الفضى ، والنهار المغموس فى حمأة الضوء تبعثه شمس كالسراج ذاتى الضوء ، العتمة الطامسة لمعالم الأشياء تبدو الأشياء فيها أشباحاً ، والإشراق الذى يملأ الكون نوراً والقلوب بهجة ومتعة .. الغروب المؤذن بتلال الظلمة الراجفة للقلوب .. والفجر بداية النهار يترنم بأهازيج الحياة الجديدة ..

كل ذلك وغيره دلالات تصاحب اللفظين الليل والنهار .. وفى كل منها مثيرات وجدانية تهز المشاعر وترقق القلوب ، وتصقل الحس وتربى الذوق ، وتدرّب الادراك .. وكم أوحت هذه الصفات فى مشاهداتها الحسية بأجمل القصائد وهى تصف جانبا من جمال الفجر فى انبثاق ينابيع الحياة ، وفى غروب الشمس وقد أذن الليل فى الدبيب وقد خلع صفرة الأفق وارتدى سترته المظلمة .. كما أوحت بأعظم المشاهد التأثرية والطبيعية سجلها الرسام فى لوحات بديعة تنطق بجمال الكون الذى أخذت منه واستقت .

ولكن هذه المشاهد البالغة الجمال قد تفقد فى نظر الانسان – الخامل – روعتها مع إلف العادة ودوام تكرارها .. ولكن القلب المؤمن يتجدد فى نبضه هذه المشاهد ، ويتلقاها فى دفقها اليومى كأنها مشهد جديد ينطق بالجمال والجلال معاً . والتعبير أيضا جاء مجملاً :

والآيات كثيرة :

قال تعالى : ﴿ **وآية لهم الليلُ نسْلَخ منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾[8]

وقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيراً . وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً** ﴾[9]

وقال تعالى : ﴿ **هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنَّهار مُبْصراً إنَّ فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾[10]

مشاهد الليل والنهار وفيرة .. وفى كل مشهد ظلال من التصوير يضاف إلى غيره من المشاهد الأخرى .. فنحن فى آية يس .. أمام الليل فى قدومه الحثيث ، والنهار أمامه يتلاشى شيئا فشيئا حتى يختفى ثم تتبدى الظلمة غاشية . وتتوالى إلى الحركة الخفية المتجادلة بين الليل والنهار .. يوما وراء يوم ، وهى مع تكرارها عجيبة تدعو إلى التأمل والتدبر .

والتعبير القرآنى فريد فى نوعه فقد عبر القرآن عن انفصال الليل والنهار بمفردة (نسلخ) .. والسلخ حركة فيها حدة وفيها تمهّل حذر ،

---

(٨) يس ٣٧ .
(٩) الفرقان ٤٥ ــ ٤٧ .
(١٠) يونس ٦٧ .

وتحتاج إلى حركة تتميز بالطاقة وبذل الجهد .. وبعد هذه الحركة الحذرة الدءوب فى فصل الأشياء المتلابسة - كتلبس الجلد باللحم مثلا - إذا بالمفاجأة تتجلى وينحسر الضوء وتعم الظلمة .. حركة مرسومة فى إطار لونى متمازج سرعان ما يتشكل ويتحدد بعده .. فتبدو الظلمة قادمة طاغية ، والضوء منحسر مودِّع ..

تلك لحظة الغروب الجميلة التى تصور نهاية حركة الجدل الخفية بين النهار والليل .. ما أجمل التعبير القرآنى وهو يصور النهار متلبساً بالليل . ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا الظلام طاغ .

ومع الجمال التصويرى تأتى الحقيقة العلمية لتوضح حركة الليل والنهار .. والآية إشارة إلى هذه الحقيقة . فالأرض كروية تدور حول نفسها ، فما يواجه الشمس نهار ، ومالم يواجهها ليل . فما أجمل هذا التعبير التصويرى المعجز لحقيقة كونية تتوالى على مرّ الدهور .

وفى آيات الفرقان .. تظهر لنا صورة جميلة مركبة من ظلال لونية .. مضَفَّرة بحركة متوالية .. مجلَّلة برحمة إلهية .. وانظر إلى حركة الظل البطيئة الوئيدة التى تبدو فى بطئها كما لو كانت سكونا قائماً .. إن التعبير بكلمة (ساكنا) يجسم لنا هذه الحركة البطيئة ، ويعطيها مساحة فى الخيال لم يكن ليكتسبها لوجاء الوصف فى أسلوب تجريدى ، خالٍ من التصوير والتخييل .

إن مشهد الظل والضوء يرسم لنا لوحةً على الأرض . (يمر به الناس غافلين .. وفى تأمله وتتبع حركته الوئيدة التى تكاد تتم فى الخيال - وإن كانت معروضة فى العيان - مايلمس النفس ، ويؤثر فى الوجدان ويتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات . ذلك منظر الظل الذى تلقيه الأجرام فيبدو

ساكنا وهو يتحرك ببطءٍ لطيف)[11]

وتُظهر تلك الحركة ، القدرة الإلهية فى الفعل كله .. (ثم قبضناه إلينا ..) فهذه العبارة القرآنية تعطى للمشهد غنىً عميقا ومعنى إلهيا رحيما .. وروحا جديدة . فالعبارة (تُخرج اللوحة من نطاق الأرض المحدود الذى كانت فيه فإذا فيها أمر آخر غير هذه الأرض .. إنه يد الله سبحانه تمتد لتقبض الظل .. إن الظل المتجسم هنا فى الأرض لم يَعُد كائنا أرضيا .. ولكنه صار شيئاً غيبيا .. مبدؤه فى الأرض .. ونهايته عند الله ..)[12]

ولنتأمل مشهد الظلال وارتباطها بالسياق وصورة الليل وقد سلخ منه النهار . فالظلال أثناء الغروب تمتد وتطول ، وتمتد وتطول ، لتختفى فجأة باختفاء الشمس . لقد انطوت فى ظل الليل والعتمة المظلمة .

ويربط سيد قطب – رحمه الله – بين هذا المعنى والسياق القرآنى فى سور القرآن فيقول : (إن هذا القرآن الذى يتنزَّل على قلب رسول الله ﷺ كان هو البلسم المريح ، والظل الظليل ، والروح المحيى فى هجير الكفر والجحود والعصيان . وإن الظل – وبخاصة فى هجير الصحراء المحرق – لهو المشهد الذى يتناسق مع روح السورة كلها ومافيها من أنداء وظلال)[13] وتتحرك صورة الظلال المرفرفة الممتدة المتطاولة فتتداخل فى مساحة الليل المعتم .. الليل الذى صورته الآية فى صورة بديعة . والذى ستر الكون كله وفرش عليه عباءته المعتمة – كما يستر الثوب البدن – فبدا الكون كأنما يلبس ثوبا أسود مطرزاً بخيوط بيضاء مبثوثة من علٍ .. وفى

---

(١١) التصوير الفني ص٦٩ .
(١٢) منهج الفن الإسلامي ص ١٥٠ .
(١٣) الظلال جـ٥ ص ٢٥٦٩ .

الليل تهدأ الحركة وينقطع الصخب ويهجع الكون انسانه وحيوانه وهوامه .. فى نوم خبا فيه الحس وخفت فيه الشعور بالوعى .. كأن الكون مقبور فى سبات عميق .. ثم تتوالى الحركة فى الزمن فتظهر فى المكان حين ينسحب الليل وينفض عن الكون لباسه الليلى .. ليتنفس الصباح فجراً جديداً فيه ألق الحياة وحيويتها .. مؤذناً بنهار مبهج يمتلىء بالنور والحركة والحياة .. وكأنما ثمة نشور وبعث من موت صغير .. ومن ثم عكست المفردتان (لتسكنوا) و (مبصرا) ، نوع الحركة فى كلٍّ من الليل والنهار . فالليل الذى يسكن الناس فيه ، ويهدأون ، والنهار الذى فيه يبصرون ، ظاهرتان كونيتان متصلتان بحياة البشر .. ذلك أن فطرتهم الداخلية تفهم عن هذا الكون لغته الخفية .

الثنائية الثالثة

وتأتى الثنائية الثالثة لتصور لنا مشهداً جماليا ، مثيراً للحس ، وملفتا للنظر .. مشهداً يتناول الفلك .. والبحار ..

والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس .

والمشهد عميق الدلالة .. فهذه البحار المتلاطمة ، والأمواج المتراكمة بلاحدود .. تهدر كل يوم بين شواطىء مترامية الأطراف ، ومسافات منفسحة وتنكسر الموجات على صدر الشاطىء زبداً رابيا .. وترف الطيور فوق ثبجه انتظاراً للحظة قنص نادرة ... وتختفى شمس الغروب فى خدرها الوردى فيَستحيل الموج لوناً ممزوجاً بين الأحمر والأصفر .. وتتلاعب الأسماك بزعانفها وأذيالها فتبدو كرقصات موقعة النغم .. وهو نفسه - البحر - الذى يثور ، ويعصف ، ويلطم ، ويبلعُ الأشياء فى جوفه فلاتعود ..

كأنه الحياة ، سكون وصخب ..

وفوق أمواج البحار تمضى السفن العملاقة .. فتظهر على البعد نقطا صغيرة محاطة بزرقة الكون مائه وسمائه ، تمضى وسط السكون ، أو وسط العواصف الشديدة ... تحمل الناس إلى بلاد الله المختلفة .. ولاشىء إلا قدرة الله ورعايته تحمل تلك النقاط الصغيرة على الموج الساكن حينا والصاخب حينا آخر ..

ولقد ربطت الآية بين الجمال والجلال والمنفعة .. فما من نفس بشرية لاتتعجب اندهاشا وتلذذاً من رؤية البحار فى أنفساحها الممتد ، وما من نفس بشرية ، لايأخذها الخوف من عمق عميق دامس الظلمة ، ومن حركة ريح عتية تعصف بالسفن الماخرة .. وما من نفس بشرية لاتنوب رقة وعذوبة حين تبدو الأشياء بقعاً صغيرة على سطح بحر لايرى له شاطىء .. وليس إلا الرعاية الإلهية ملاذا للأنفس ... هذه البحار أداة نفع هائلة للبشر ، ولاحدود لنفعها .

والآيات فى هذا المحور الطبيعى كثيرة .. ولنأخذ نموذجاً ..

قال تعالى : **﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغو من فضله ولعلكم تشكرون ﴾**[١٤]

وقال تعالى : **﴿ وما يستوى البحران هذا عذبٌ فرات سائغ شرابه وهذا ملح أُجاج ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حليةً تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾**[١٥]

وقال تعالى : **﴿ هو الذى يسيرُكم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم**

---

(١٤) الجاثية ١٢ .

(١٥) فاطر ١٢ .

فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصفٌ وجاءهم الموج من كلّ مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعَوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين ﴾[١٦]

تتجلى رحمة الله بعباده فى تسخير البحار وتذليلها لخدمة البشر ، فتسير السفن فوق موجه رخاءً .. بمشيئته وإرادته دون أن يبتلعها البحر فى جوفه العميق وفيها نعم كثيرة تنفع الناس .. لقد خلق الله البحر بخصائص معينة ، وهدى الانسان إلى إدراك هذه الخصائص للانتفاع بها تجارة وطعاماً وحياة متكاملة من صيد وزينة ومعرفة ورياضة .. وسائر مايبتغيه الانسان من فضل الله فى البحار .. وهذا الانعام يواجَه بالشكر . والقرآن يربط قلب المؤمن بما فى الكون المحيط به ليدرك الوحدة فى المصدر والاتجاه .

ثم انظر إلى الجمال الالهى فى هذا التنوع فى مجال الماء ، فثمة الماء العذب السائغ وثمة المالح الأجاج . ووراء ذلك حكمة .. فالماء العذب قوام الحياة ، أساس النمو والبهاء فى مختلفَ جوانب الأرض من نبات وحيوان وبشر .. وماء البحار المالح يحدث التوازن .. وبه تكتمل دورة المياه المعروفة .. وانظر أيضا إلى التناسق المتوازن بين مشهدين يقعان تحت الحس ، يشعان بالجمال ويختلفان فى التنوع ، يصدران عن وحدة ، ويتفارقان فى الشكل .. هذا التنسيق الجميل لايأتى مصادفة ، وإنما هو محكوم بقدرة الله .

وهذان البحران – العذب ، والمالح – لايلتقيان .. إنها حقيقة علمية .. فمياه الأنهار تدخل فى البحار وتمتد دون امتزاج ، ولاتدخل مياه البحار فى الأنهار (ولولا هذا الضغط التنافذى الموجه من الماء العذب إلى

---

(١٦) يونس ٢٢ .

الماء المالح .. لتسربت الأملاح إلى المياه العذبة ودخلت فيها .. وأصبحت كل المياه على سطح الأرض مالحة .. واستحالت الحياة ..)[١٧] وتلك الحقيقة تدعو إلى التأمل والتدبر فى خلق الله لادراك مافيه من حقائق تنفع الناس ، ولتذوق مافيه من تصميم بديع ، ونظام دقيق .. وهما صفتان للجمال ...

وبالرغم من هذا التنوع والتفارق فإن فى كلٍّ منهما متعة الحياة ولذائذها الطيبة .. فها هى الأسماك بأحجامها وأشكالها تمرح فى الموج عذبة وملحه .. متعة للنظر ، ولذة فى الطعام ، ومجال للصيد ، وواقع للتجريب .. حياة فى بطن الماء تمتلىء بالحركة والحيوية .. فضلا عما تتمخض عنه البحار من حلى وزينة كاللآلىء والمرجان .. وعلى السطح تمخر السفن طافية ، شاهقة كالأعلام ..

ثم نأتى لنرى مشهداً طبيعياً آخر فى البحار حين تهيج وتتلاطم الأمواج وتعصف بكل شىء فالرياح عاتية ، والموج يحيط بالسفينة من كل جانب والهول يقبض على الأنفاس والسفينة تترنح ، يلطمها الموج فيعلو بها ويحطها فى حركة عنيفة تتناسق مع حركة الوجدان الخائف الناشب فى النفوس ، إنها ريشة فى مهب الرياح .. وتتوجه القلوب إلى بارئها أن ينجيها من هذا الكرب .. أمواج ورياح وانفعال .. وتناسق فى الهول (إنه مشهد كامل لم تفتنا منه حركة ولا خالجة .. مشهد حادث .. ولكنه مشهد نفس ومشهد طبيعة ، ومشهد نموذج بشرى لطائفة كبيرة من الناس فى كل جيل)[١٨] وما أروع اللوحات الطبيعية التى صورها القرآن للبحار ..

---

(١٧) انظر كتاب الإسلام والنظر في آيات الكون ص ١١٠ وما بعدها .

(١٨) الظلال جـ٣ ص ١٧٧٤ .

الثنائية الرابعة

وتلك الثنائية ترتبط بالثنائية الأولى .

﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها .. وبث فيها من كل دابة ﴾

ثمة مشهد طبيعى رائع الجمال .. جاء مجملا كعادة الآية فى سورة البقرة .. ونظرة إلى المشهد نرى أبعاده وجوانبه الطبيعية .. فالأرض جافة ، تشققت ، وتصدعت قشرتها ، وانفتحت أرجاؤها .. منظر الجفاف الذى يلوى القلوب ويعصر الأفئدة . منظر تراه العين فيبدو فى بؤرة الادراك لوحة ميتة رمادية اللون تكتنفها أخاديد بطولها .. وفى زوايا السطوح بقايا حياة ملفوظة .. ثم ينهل المطر من السماء ، سلوكاً فضية مترعة بالحياة والنمو .. فتتلقاها الأرض العطش .. وترتسم لوحة جديدة .. هذا الماء المنسكب امتصته مسام الأرض .. فالتأمت الأخاديد .. وانضمت الأرض على نفسها ، ريًّا وحياة . فزهت وأثمرت .. ومشت على بساط اللوحة الفراشات ، والأنعام ، والانسان .. فى لوحة زاهية بالجمال والمتعة .. ولايفوتنا تلك الحركة البطيئة .. حركة النمو .. وكذلك حركة المطر العنيفة .. حركة الإحياء .. والآيات فى هذا المجال كثيرة .. وهى ترد فى كثيرٍ منها لبيان أوجه التوحيد ..

قال تعالى :

﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماءً ، فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضِراً نُخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، مُشْتَبِها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينْعه . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[١٩]

(١٩) الانعام ٩٩

الماء .. الذى ينهل من السماء .. جالباً الخير والنماء .. كثيراً مايرتبط بالأرض فى تحولها من همود ديباب إلى حيوية وخصوبة .. وضرب القرآن بهذه الصورة أمثلة عديدة تدور حول الحياة والموت ، والبعث والنشور ، ويقين الوحدانية ، وخداع المظهر ، وسراب العمل الضال .. وجمال الزينة ، وروعة البهاء .. وغيره كثير .. والمشهد عامرٌ بالحيوية ناطق بالحركة ... فثمة سحاب متراكم يخرج منه الودق والرعد .. ثم تنهل الأمطار حاملة النماء والزهو .. والبهجة .. تلك الخيوط المائية هى علاقات حياة تربط بين السماء والأرض فى جدلية دائمة .. مقدرة بفعل القادر المبدع ... هذا هو جانبٌ من الصورة .

ومساحة اللوحة عريضة ، الأرض التى خرج منها بإذن الله مالذّ فطاب .. وأمتع فأسعد . النباتات على اختلاف أنواعها والفواكه والثمار والحبوب والشجر .. قماشة خضراء مطرزة بالأشكال والألوان .

قال الطبرى : أخرجنا به ماينبت به كل شىء وينمو عليه ويصلح . وتتلون لوحة الطبيعة بتلك النباتات الخضراء الغضة ، الندية فى خضرتها .. ويتساوق ويعلو ويزهو ويثمر .. ويتراكم الحبُّ بعضه فوق بعض ، مترعًا وممتلئا .. كسنابل القمح الزاهية بلونها الأخضر الذى يتحول إلى لون ذهبى جميل .. وكذلك الشعير والذرة والأرز .. وكل ما من شأنه تكون الحبوب فيه .

وينبثق من المساحة ، النخل مرتفعا كالسهم .. مشرعاً إلى أعلى ، متألق بتاج من الخضرة مموّه بعراجين ممتلئه بثمار البلح فى تحول لونه وتعدد شكله .. وتتدلى العراجين دانية تطلب الجنى والقطف .. ولاينحنى تلك الظلال اللطيفة الأليفة التى تحدد بعضا من خيوط المشهد .. والثمار – كما يرى الكشاف – (سهلة المجتنى ، معرضة للقاطف ، كالشىء الدانى

القريب المتناول)[٢٠] .

وتتحدد في مساحة اللوحة البساتين والحدائق عامرة بالأعناب والزيتون والرمان ذوات أشكال وألوان مختلفة .. ما بين الثمر والورق والأغصان والظلال .. قال قتادة : مشتبها ورقه ، مختلفا ثمره ، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير .

وليتأمل الإنسان الثما إذ أينعت ويضع مناسيبها الجمالية في اللوحة .. وليتابعها من خروجها ابتداءً إلى تحولها وانتهاء نضجها ، وليرى كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والشكل والرائحة والحجم ، وكيف يتحول الطعم من مرارة وملوحة إلى حلاوة طيبة ونداوة طيبة المذاق .. وليتأمل الانسان هذا الجلال والجمال كله ، ليدرك قدرة الله ووحدانيته ..

يقول الزمخشري : وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قُدْرَةٍ مُقَدِّرة ومدَبِّرة وناقلة من حال إلى حال)[٢١] إن الأداء التصويري المنوع يستعرض أنواعاً من الحياة على مساحة الأرض ، فبلغت الحس إلى القدرة الالهية ، ونسّق في اللوحة المعجبة بين تعدد النماذج والأشكال في المشهد ، والتعبير على السواء . فالتعبير مثلا في مفردة «انظروا» له دلالته الجمالية .. (انظروا إلى الثمر إذا أثمر والينع إذا أينع ، انظروا إلى الجمال ، انظروا بعيون مفتوحة وحس مستشرف لتملي الجمال ، انظروا واستمتعوا بالنظر .. ولا يقول كلوا .. لأن المعرض معرض الجمال المبثوث في الطبيعة ، والقدرة القادرة التي تبدع الجمال)[٢٢] .. حقا إن الذي يدرك هذا الجمال والجلال معا هم القوم المؤمنون .

---

(٢٠) الكشاف جـ٢ ص٣١ .

(٢١) المصدر نفسه ص ٣١ .

(٢٢) منهج الفن في القرآن ص ١٤٧ .

الثنائية الخامسة .

(تصريف الرياح والسحاب المسخر)

وها هى الرياح ، يصرفها الله أنى شاء ، فتتحول من وجهة إلى أخرى ، وهاهو السحاب المتراكم الثقيل والخفيف يملأ سماء الأفق ثقيلا ، متراكما ... مسخراً بين السماء والأرض ، خاضعاً للمشيئة ، محمولاً على بسائط الريح ، تقوده إلى هنا ، وتدفعه إلى هناك لحكمة مرادة .. ومن ثم يستقر مطراً منهلاً يجلب الخير والنماء ...

تلك لوحة تعتمد على الحركة والجدل ... وتشى بجمال أخاذ .. ومن لايسعد لرؤية السحاب المتراكم مدفوعاً فى كبد السماء بفعل ريح توجهه الوجهة المرادة ، ومن لايسعد ويتلذذ برؤية المطر ينهل فى ارتعاشات ضوئية ولونية مصاحبة تَنْضَحُ بالجمال ..

والآيات التى تناولت هذا المحور كثيرة .. ولنأخذ نموذجاً ..

قال تعالى : ﴿ **الله الذى يرسل الرياح ، فتثير سحابا . فيبسطه فى السماء كيف يشاء . ويجعله كسفاً . فترى الودق يخرج من خلاله . فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون .** ﴾[٢٣]

وقال تعالى : ﴿ **ألم تر أنَّ الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله . وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عَمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** ﴾[٢٤]

الآيات سجل حافل للوحات مصورة .. لوحة بعد لوحة فاللوحة الأولى إرسال الرياح .. فالرياح – بفعل الارادة – تقوم بدورها مسيرة

(٢٣) الروم ٤٨ .

(٢٤) النور ٤٣ .

بالقدرة محملة برسالة ، عليها أن تؤديها كإنسان عاقل .. وانظر إلى الجمال التصويرى فى الطبيعة الذى يبين أن لكل شىء رسالة يحملها ليؤدى دوره فى منظومة الكون الواحدة ...

اللوحة الثانية :

حملت الرياح الرسالة حين بعثها الله بها .. فتكونت لوحة أخرى هى إثارة السحاب .. وانظر إلى الصورة تثير سحاباً .... إنها تحركه من ثبات ، وتسوقه أمامها ، وتدفعه فى اتجاهات محسوبة ... إنها تحرسه وتدفعه بحساب . ثم تبدأ فى بسطه .. وبثِه فى الجو خفيفاً أو كثيفاً مطبقاً أو غير مطبق .. ثم يتشكل بفعل الدفع والحركة قطعا كثيفة متراكمة ، يصطدم بعضها مع البعض ... تلك حركة مشهودة للعيان .. حركة الريح مرسلة بالمشيئة وحركة السحاب مبخراً ومكثفا ومتراكما .. ويصحب الحركة تنوعات فى الشكل واللون والحيز .... فما أبدع الخالق !!!

اللوحة الثالثة :

وتصل الحركة فى تدافعها وتصادمها إلى خروج الماء وسقوط المطر من خلال السحاب . وتتضخم قطرات المياه وتتواصل فى شكل مطر منهمر . وإذا اشتدت البرودة تشكلت قطرات المياه ، تشكلات جديدة ، وتبدو فى شكل البرد الأبيض ، يتكاثف بعضه فوق بعض فيبدو ضخما هائلاً جليلا كالجبال الراسيات .. ولاشك أن اللون الأبيض يعطى للوحة صفاءً ونقاءً وجمالاً آسراً ...

ولننتقل إلى صورة متخيلة للسحب المتراكمة الثقيلة .. فإذا ماركبنا طائرة واخترقت السحاب عاليا .. بدت السحب كالجبال ضخامة وثباتاً .. (فإذا المشهد ، مشهد الجبال حقا ، بضخامتها ، ومساقطها ، وارتفاعاتها وانخفاضاتها . وإنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا

الطائرات)[٢٥] ويصيب ذلك كله – الماء ، والبرد – من يشاء الله من عباده . أو يصرفه ويدفعه عمن يشاء .

قال الصاوى : كما ينزل المطر من السماء وهو نفع للعباد كذلك ينزل منها البرد وهو ضرر للعباد . فسبحان من جعل السماء منشأً للخير والشر[٢٦]

اللوحة الرابعة

وهى لوحة تتناول الومضات الضوئية فى سيال نورانى متدفق . فالسحاب المتراكم المتصادم ، والمتدافع ، مشحون كهربائيا ، وحين تلتقى الثنائية ، السالب والموجب ، ينشأ هذا الوميض الخاطف ، البرق ، فيتبدى سلوكا ضوئية منفرجة تكاد من قوتها أن تخطف أبصار الناظرين .. ويليه هذا الدوى الهائل الذى هو الرعد .. صوت هائل يصك المسامع وينبىء عن تلاقح كهربى ..

اللوحة أرضيتها تراكم فى الغيْم ، فيه كثافة وظلمة من جهة ، وفيه خفة ورمادية من جهة ... ثم تأتى الحركة فتدفع وتصطدم ، فتسجل الحركة على أرضية اللوحة .. هذا البرد الخاطف المتعرج كسلوك من الفضة .. ثم يضاف إلى اللوحة المصورة الصوت الذى يكشف سرّ هذا التدافع .. وهى كلها موافقات ذات مناسيب محددة تكشف سرّ التدبير الدقيق الذى يشى بالقصد والاعتدال ، كما يشى بوحدة التصميم ورحمة التدبير ..

ولَوْ ألقى الانسان عن عقله الغفلة واستقبل المشهد المصوَّر بحس متجدد وقلب منوَّر بالإيمان لأصبحت كل نظرة ، وكل حركة لفتة متجددة إلى إدراك الجمال والجلال فى تناسقه وكماله (إن الإيمان رؤية جديدة للكون ، وإدراك جديد للجمال ، وحياة على الأرض فى مهرجان من صنع الله)[٢٧]

---

(٢٥) الظلال حـ٤ ص ٢٥٢٢ (٢٦) صفوة التفاسير حـ٢ ص ٣٤٣ (٢٧) الظلال ح ١ ص ١٥٣ .

الفصل الثامن
الأداء التصويري في مشاهد القيامة

الأداء التصويرى فى مشاهد القيامة

لقد عنى القرآن الكريم بمشاهد القيامة عناية أخذت جانبا كبيراً من السور القرآنية ، حيث البعث والحساب . والنعيم والعذاب ، والرد على إنكار المنكرين ، فى نسق تعبيرى مصور يحيل الأمر الذهنى إلى مشهد حَيى متحرك ..

ولقد وردت مشاهد القيامة فى إطار سردى بالغ الدقة فى الوصف والتصوير . وهى تجسّد المستقبل المغيّب فى نسق مصور ، نحس فيه ونحن نقرأ ونتلقى بالصورة الحركة والإيقاع والحياة المتلاطمة وتعنى مشاهد القيامة بتصوير الهول فى ذلك اليوم .. وهو هول عام شامل لايفوت منه شيء ، الكون كله بما فيه ومن فيه . حتى لتبدو كل المفردات حيَّة شاخصة يدب فيها نوع من الحياة . وهذه المفردات التى تكون المشهد الحى .. قد تكون مفردات طبيعية .. الشمس والنجوم والجبال .. وقد تكون نفوساً بشرية .. تنتظر جزاءً أو حسابا .. والكل فى الهول خائف ومرتعب . وثمة سمة تجمع بين مشاهد القيامة وهى انها مشاهد حيّة ، منتزعة من عالم الأحياء .. مقياسها هو المشاعر والخواطر والانفعالات ... وتتحدد صورة هذه المشاهد مرسومة فى أداء معجز وفى تفاعل يقينى فى النفوس البشرية ، أو فى مفردات الطبيعة وقد شُخّصت وخُلع عليها ثوب الحياة وإذا كانت صور الحياة فى جمالها وزينتها ، وتنوعها فى أنساقها المختلفة صوراً مجسدة فى القرآن بطريقة يُسْدل منها - فضلا عن الأداء الفنى المعجز - على البعث والنشور ، والجزاء والعقاب .. وتصوير الأعمال الصالحة ، أو الباطلة .. وبيان آلاء الله فى الكون والإنسان ، فإن مشاهد القيامة ، هى الأخرى حياة حاضر تتملاها العين ، وتحسها النفس ، ويَقْبض عليها الإدراك العقلى المؤمن ، وتتفاعل معها شتى المشاعر والوجدانات . إنها المشاهد

الحاضرة الغائبة إن صح التعبير ... ومشاهد القيامة مصوَّرة فى جمال متناسق يتجلى فى مفردات المشهد وجزئياته . فترد تلك المفردات مجدولة فى نسق تعبيرى معجز ، من حيث التماثل والتضاد ، والتجسيم والتشخيص ، والحركة والفعل مصحوبة بدلالات الألفاظ وجرسها ، وجمال المجاز والتخييل ، وظلالات الألوان وتنوعها ، وصدى الأصوات وترددها ، مما يعطى للمشهد إيقاعه واتساقه .

ومعلوم أن مشاهد القيامة مرتبطة بالهدف الدينى .. فلقد أنكر العرب البعث إنكاراً تاما ، ولم يطاوعهم عقلهم القاصر على إدراك هذه القضية التوحيدية الكبرى .. وظل السؤال معلقا فى أذهانهم ، مُصَاغا صياغة قرآنية معجزة تكشف عن هذا الجانب الانكارى .

قال تعالى : ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون .** ﴾[1]

وهذا الاستفهام الانكارى يعكس لنا طبيعة القوم وصدهم عن الدين ، وإنكارهم للبعث .. متصورين – انطلاقا من منطق وثنى مادى – أن الحياة حين تنتهى لن تعود ..فلا بعث ولا قيامه . وهذا الانكار جوّبه به كل رسول حمل رسالة التوحيد ومن ثم يصبح الغرض الدينى وراء هذا التصوير المبدع لمشاهد القيامة . هو المعنى البارز ، والدلالة العميقة ، والمنهج المؤصل فى قضية البعث .

(ومشاهد القيامة فى القرآن كلها مسوقة لأداء الغرض الدينى ذلك الغرض الأول للقرآن . ولكنها تتصل بالوجدان الدينى عن طريق الوجدان الفنى)[2] وإذا كان الموضوع دينيا فإنّه ذو دلالات فكرية وخلقية وجمالية .

(١) الواقعة ٤٧ ــ ٤٨ .

(٢) مشاهد القيامة في القرآن ص ٤٧ سيد قطب .

فالحياة الدنيا متصلة اتصالاً وثيقا بالآخرة بحيث تصبح الحياة الآخرة امتداداً للحياة الدنيا ، وهذا الاتصال مصور بطريقة مجسدة . وإذا كان القرآن يرسم صوراً حسّية للنعيم فلذلك لأن الانسان (فى الآخرة هو انسان هذه الدنيا ، منظوراً فى صورته النهائية التى اكتسبها من التجربة .. وبهذا تصبح الآخرة هى اكتمال الحياة الدنيا .. وأن الذى سيتلقى النعيم أو يذوق العذاب ليس شخصا آخر منقطعا .. وإنما هو ذاته فى صورته النهائية التى تطور إليها نتيجة مسلكة فى أثناء تجربة الحياة)[٣]

ولنأخذ نموذجاً من مشاهد يوم القيامة ، نموذجا لمشهد تتحرك فيه جزئياته شخوصا حية .. مابين طبيعة ساكنة صامتة ، وبين حيوان أعجم ، وبين انسان واع ومدرك ..

قال تعالى :

﴿ إذا الشمس كُورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سُيرت . وإذا العشار عُطلت . وإذا الوحوش حُشرت . وإذا البحار سُجّرت . وإذا النفوس زُوْجت . وإذا الموءودة سُئلت . بأى ذنب قُتِلت . وإذا الصُّحف نُشرت . وإذا السماءُ كُشطت . وإذا الجحيم سُعّرت . وإذا الجنة أُزلفت . عَلمت نفسٌ ما أحضَرَتْ . ﴾[٤]

الآيات الكريمة تتحدث عن يوم القيامة .. ومايصاحبه من تحول رهيب يمس مفردات الكون من الشمس حتى الانسان .. ولعلنا نلاحظ أن ثمة إيقاعاً يشمل الآيات ممثلا فى الحركة العنيفة التى تجتاح كل شيء .. وتثير كل شيء ، فتطمس الأنوار ، وتتلاشى الثوابت ، وتنفجر البحار بالنار .. ويحل الروع محل الأمن ، والصخب المرعب محل السكون ..

---

(٣) منهج الفن الإسلامي ص ١٧٤ .

(٤) التكوير ١ — ١٤ .

ويتبدَّى الانسان فى حالة من الخوف تهز القلب وتنفضه .. فالهول عاصف جارف ، ولا ملاذ فيه إلا رحمة الله .. إنه انقلاب كونى .. مشهود ، مصوغ فى ثراء دلالى ، وإعجاز تعبيرى ، وإيجاز مَوقَّع إيقاع وصور وظلال ، ومشاهد ... تتناغم لتصور هذا الانقلاب يوم القيامة .

وفى تلك الحركة الجائحة والثورة الشاملة ينكشف المستور ، ويتهيأ الموقف لبيان الجزاء والعقاب ، الجنة أو النار . والملاحظ على الآيات الايقاع السريع فى متواليات المشهد .. فالشمس ينحسر ضوءها ، وتطوى حرارتها .. وتُلَف كما تلف العمامة ، ويطوى كل مافيها من قوة وجرم وضوء .. وتصبح جرما مطموساً منطفئا بارداً . ومنظومة النجوم البهية فى توازنها ، تتساقط وتتناثر ، وتنفصل حبات المنظومة ، والضوء ينسحب منها ويتلاشى . ويشيع الظلام ... فلاضوء من الشمس ولا نور من النجوم .. ولاثبات لشيء .. والجبال الرواسى الشامخات الثابتات ... تتحرك من أماكنها حركة عنيفة وتتطاير فى الهواء كالهباء .. خفيفة هشة سريعة .. فالهول قابض على الكون ، والانفجار طال كل شيء .. حتى النوق العشار الساكنة التى هى عند أصحابها كالكنز لايفرط فيه ، تركت هملاً بلا راع ولا طالب .. لقد أضحت لا قيمة لها .. وكيف يهتم الناس والهول نقبض على الكون ، والكل مشغول بنفسه !! فالرجفة زلزال قلب الموازين .. ومامن أحد يقف ليهتم بشيء ... وهاهى الوحوش الكاسرة هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع ، ونسيت مخاوفها ، كما نسيت فرائسها .. ومضت هائمة لا تأوى إلى جحر ، ولا تنظر إلى عشار مهملة ، فلقد نسيت فى ظلال الهول خصائصها المتوحشة وسعت إلى ملاذ .. وهى الضَّارية .. والبحار هاجت وماجت وتفجرت مياهها ناراً .. تطول كل شيء كالتنور

المسجور المليء بالحطب ، المشتعل بالنار[٥] .. إن الادراك البشرى ليعجز عن تصور هذه البحار المسجورة .. وهاهى النفوس تتجمع كتجمع الوحوش رغبة فى الملاذ .. الزلزال عنيف ، والرجفة شاملة ، والأرواح تجسدت فى أشكالها ، وانضمت كل جماعة فى رباط متشابه ... فالفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح[٦] ... والكل يبدو فى تشكيل متجانس مرعوب بهول الموقف . والموءودة التى هانت على الناس فى الجاهلية فدفنوها حية ، خوف العار والفقر ، الموءودة التى تدفع دفعاً إلى البئر ويهال عليها التراب بلا رحمة أو شفقة ، الموءودة التى قتلت فى صمت دون ذنب أو جريرة ، تبعث لتسأل ، أى ذنب ارتكبت حتى قتلت : تسأل عمَّن وأدها .. ولا مجيب ، وكيف يجيب القتلة ! وهم فى شغل بأنفسهم وبالهول حولهم ! إنه سؤال فيه تبكيت وتوبيخ للقتلة[٧] .

ثم يتجلى المستور والمجهول .. فإذا الصحف تنشر بعد طيها ، تعلن عن المستور فتفضحه فيصبح أنكى وأشد على النفس . وهو نشر يتساوق مع حركة التحول الكونية ، وهو لون من ألوان الهول النفسى . فصحف الأعمال تطوى عند الموت وتنشر مبسوطة عند البعث ، مقروءة مكشوفة[٨] .. فلقد

---

(٥) يقول الزمخشري : سجر التنور إذا ملأه بالحطب أي ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً . الكشاف جـ٤ ص ١٨٨ .

(٦) قال الطبري : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، وبين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار .

(٧) بكت الله الكافر ببراءة الموءودة من الذنب . وفيه دليل على أن الأطفال المشركين لا يعذبون . الزمخشري ويرى سيد قطب أن الإسلام جاء ينهي عن الوأد ويغلظ فعلته ، ويجعلها موضوعاً من موضوعات القيامة ...

(٨) قال ﷺ **(يحشر الناس عراة حفاة . فقالت أم سلمة : كيف بالنساء . فقال : شُغل الناس ياأم سلمة وقالت : وما شغلهم . قال : نشر الصحف ، فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل : الكشاف)** .

جاء وقت الحساب ..

والسماء – هذا السقف المرفوع – أزيلت ونزعت من مكانها كما ينزع الجلد عن الشاة . السماء التى كانت حجاباً وستاراً كشطت فلاستر ولاخفاء ، وظهر المجهول فى الآفاق . لينضم إلى فرائد الهول فى عقده غير المنظوم .

والجحيم امتلأت بالوقود واشتعلت فيها النيران وتأججت باللهب ، وماجت الحرارة فى جوفها وخارجها .. فتحت أرجاءها لتلقف ماوعدت به من وقود .. الناس والحجارة ، والكل ينصهر ويحترق فى هذا الأتون الهائل .. والجنة تتبدى شيئا فشيئاً فى جمال وروعة وفتنة . وتظهر للموعودين بها ، إنها تدنو مهيَّأة مداخلها ، لتستقبل المستأنسين بها والمنعمين بما فيها ..

فى هذا اليوم الذى حدث فيه انقلاب فى كيان الكون ، وفى أحوال الأحياء والأشياء .. فى هذا اليوم تعلم كل نفس مالها وماعليها .. وقد تغير كل شىء ، وانفصلت عن كل ماهو مألوف .. إنها فى هذا اليوم تعلم كل نفس ماقدمت من عمل صالح أو طالح (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا) (هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود ، والثورة الشاملة لكل موجود الانقلاب الذى يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، ونفوس البشر .. حيث ينكشف كل مستور ، ويعلم كل مجهول وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد فى موقف الفصل والحساب وكل شىء مِنْ حولها عاصف ..)[٩]

إن المشهد تصوير حى ليوم القيامة مرسوم فى لوحة موقعة

---

(٩) الظلال جـ٦ ص ٣٨٣٧ .

بالحركة .. والصوت واللون والظلال .. فالحركة عنيفة تطيح بكل شيء .. الشمس المكورة ، والنجوم المنكدره والجبال المسيِّرة . البحار المسجورة . وهى اندفاع للتجمع لاتقاء الهول .. « الوحوش حشرت ، النفوس زوجت » وهى حركة متسائلة مندهشة فى تعجب وتبكيت ، « العشار عطلت » . « الموءودة سئلت » وهى حركة البسط والنشر وكشف المجهول .. « الصحف المنشورة » ، « السماء المكشوطة » .. إن إيقاع الحركة فى تعدد درجاتها ملمح جمالى تضمن المشهد كله .. ويأتى الصوت مصاحبا للحركة فثمة انفجار صاخب يرعد ، يملأ الآفاق ويصك المسامع .. وينداح اللون ليجسد حركة الأشياء فى المكان .. فثمة نيران ملتهبة ، وثمة ظلام دامس وانطماس لضوء الشمس ونور الكواكب .. وتأخذ الجنة والنار حيزاً فى مساحة اللون ، الجنة بجمالها وظلالها وبخيراتها المترعة تتبدى فى حركة بشر وفرح ... أبوابها تتفتح عن جمال رائق وفتنة معقودة .. والنار تتميز غضبا بنيرانها الحارقة وظلال الدخان ، وزفيرها المتأجج .. وأسفل اللوحة ، توجد النفوس مبثوثة ، هائمة ، مذهوله ، فى انتظار الحساب .. ثم يتجلى الحق .. والحق يتجلى فى مفردات اللوحة . نلاحظ ذلك من دلالة الفعل المبنى للمجهول .. حيث يفيد إسناد الفاعلية لله سبحانه .. ويترقرق على مساحة اللوحة إيقاعات الفواصل فى نغم منساب يعكس الحالة ويصور التغير والانقلاب ..

يقول الرافعى « الفواصل صورة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقاً عجيبا ، يلائم الصوت والوجه الذى يُساق إليه ... وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة وأثرها طبيعى فى كل نفس ... »[١٠]

---

(١٠) القرآن المعجزة الكبرى ص ٣٠٣ .

ومن ثم فإن تكرار التاء مصاحبا لصوت الجملة ، ومناسبا للحركة الكامنة ، وهو حرف قوى يستتبع صوتا صَفيريًّا يغلف الإيقاع كله .

وثمة مشاهد للقيامة تتناول الهول النفسى فى ذلك اليوم .. ولنأخذ نموذجا ورد فى سورة عبس :

قال تعالى : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرءُ من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة** ﴾[11]

سورة « عبس » من السور المكية ، التى تتناول شؤون العقيدة ، ومن أصول العقيدة التأكيد على الإيمان باليوم الآخر .. ومن ثم فقد جاءت الآيات الأخيرة من السورة لتصف لنا أهوال هذا اليوم .. وأحوال المؤمنين والكافرين ، والهول فى هذه الآيات هول نفسى لأنه داخل فى وجدانات البشر فى أخص مشاعره المرتبطة بأهله .

ولعلنا لاحظنا الدوى الهائل والحركة الجائحة والصوت الراعب فى آيات « التكوير » بتنويعاته ... وهنا يأتى اللفظ (صاخّة) عاماً ، كأنما يختزل هذا الدوى السابق . فاللفظ له جرسه العنيف ، وله نفاذه العميق ، ومن شدته يكاد يخرق الأذن ، وينفض القلب ، والصاخة .. جاءت على الفاعلية لدوام الصوت وإلحاحه واستمراره ، وشموله الكون كله ..

تلك هى الصيحة الهادرة التى تصخ الآذان ، وتنخلع لهولها القلوب .. وينطلق الناس حيارى ، خائفين مرعوبين ، حتى يهرب الانسان ناجيا بنفسه من أحبابه وخلصائه الذين ارتبط بهم فثمة مشهد يملىء بالذعر

---

(١١) عبس ٣٣ ــ ٤٢ .

وينضح على المساحة كلها .. مشهد المرء وهو يفر من الهول من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه .. لقد جاءت الصاخة فشرخت كل الروابط وشقتها شقا ..

جاء فى التَّسْهيل : ذكر تعالى فرار الانسان من أحبابه ، ورتَّبهم على مراتبهم فى الحنوّ والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر ، لأن الانسان أشد شفقة على بنيه من كل ماتقدم[١٢] ... إن الهول يستبد بالنفس ويفصلها عما يحيط بها حتى أقرب الأقرباء إليها .. فكل امرىء عنده مايشغله من الرعب والخوف والهم القائم ، فلا يفكر إلا فى نفسه وينحصر همه فى ذاته ، ويعلو صوته هاربا مستغيثاً نفسى ، نفسى ..

هذا حال القوم فى هذا اليوم العصيب ..

ثم تتلون اللوحة بظلال نفسية ، تعكس الحال وتكشف الخلق . فثمة خلق سعيد تشع وجوههم نوراً وسعادة ، يتألقون بالفرح والبشر تنعقد قلوبهم على الرجاء فى رحمة الله ، وتطمئن قلوبهم باستشعارها الرضى الإلهى .. إنهم قوم آمنوا بربهم ، فعرفوا مصيرهم فأشرقوا بالسعادة ، واستبشروا أملاً زاهيا يخرجهم من هذا الهول ، ويقربهم من النعيم الدائم . فها هى الجنة قد أزلفت إليهم .. وفتحت أبوابها ..

وثمة خلق آخر يعلوه الخوف والرعب من المصير القاسى ، تنضح وجوههم بتعاسة لاحدّ لها ، وتعلو وجوههم غبرة الحزن على ماهم فيه ، وقتامة الحسرة على مافرطوا فيه . لقد غشيهم الذل ، والسواد ، والانقباض ، فتيقنت من مصيرها .. إنهم الكفرة الفجرة .. وتلك الوجوه السوداء الشائهة لدليل على أنهم جمعوا بين خسّتين .. الكفر والفجور .. وإنهم يخافون من الجحيم .. « وإذا الجحيم سعرت » .

(١٢) صفوة التفاسير جـ٣ ٥٢١ . ويرى الزمخشري : وقيل يفر منهم حذرا من مطالبتهم بالتبعات .

وانظر إلى الألفاظ التى وشت بظلال المعانى وساهمت فى تلوين اللوحة وتشكيلها . فالوجوه مسفرة : فمفردة مسفرة ، تشع بالنور والضياء والتلألؤ .. وهى صفة تلازم الصبح .. وتخيل الوجوه تعكس جمال الصباح الندى بنوره الفجرى البهيج ... وانظر إلى مفردة غبرة وقترة التى تصف وجوه الكافرين : لترى وجه لتقابل فى اللوحة . فهنا ظلال معتمة تطمس الوجوه ، وتشوهها ، فتبدو قبيحة قميئة منفّرة .[١٣]

ثم لننظر إلى التقابل الجميل ، الذى يوضح الدلالة ويكشف الحالة .. « فضاحكة مستبشرة » ، تصف حال المؤمنين المطمئنين ، المستبشرين .. فرح ، وسعادة ، وألق ، وانطلاق ، وأمل ، وحياة طيبة .. و (ترهقها قترة) تصف حال الكفرة الفجرة ، وتصف قوة الهول النفسى الذى يقبض على النفوس ، وتعكس الوجوه ذلك الهول ، انقباضا ، وحزنا ، وألما شديداً ... لقد ارتسمت ملامح وسمات الوجوه بين هؤلاء وهؤلاء من خلال الألفاظ الدالة ، مما تتبدى فيه الوجوه فى مساحة اللوحة كأنها شاخصة مشخَّصة ..

وفى الهول النفسى والذهول ماورد أيضا فى سورة القلم .

قال تعالى : **﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعَون إلى السجود فلايستطيعون . خاشعاً أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعوْن إلى السجود وهم سالمون . ﴾**[١٤]

الهول يطيح بكل شيء ويعصف بالنفوس ، إنه يوم القيامة الذى يشمر فيه عن السّاعد ، ويكشف فيه عن الساق ، دلالة عما يأخذهم من كرب وشدة . إن هؤلاء الكفرة يدعون إلى السجود تبكيتا وتوبيخا فلا يستطيعون ،

---

(١٣) قترة : سواء كالدخان . ولا ترى أوحش (أقبح) من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ــ الكشاف حـ٤ .

(١٤) القلم ٤٢ ــ ٤٣ . .

لقد تصلبت ظهورهم وأصبحت كالفقار الواحدة . لقد فات الأوان ، والهول الشديد بكربه وشِدّته يُعجزهم عن الحركة .. لقد بدوا فى هذا المشهد أذلاء ، خاشعين شوع الذلة ، لايقوون على رفع الرءوس ، من شدة الذلة التى غشيتهم .

إن الظلال النفسية التى ينضح بها المشهد ترسم لنا حالة الذلة التى تحيق بالكافرين وتصور الذلة فى صورة ثقيلة ضاغطة تجذب الرءوس ، وتلّون الوجوه ، وتبهت العيون ، وتشكل الصورة البشرية فى شكل إنسان مسحوق بضواغط نفسية ، يستحقها . كما أن التوبيخ[١٥] يليق بهؤلاء .. ذلك أنه فى موقف الحياة دُعوا إلى السّجود إلى الله وهم القادرون فأبوا ، والآن يطلب منهم السجود من باب التبكيت والإمعان فى الإذلال .

ولنأخذ نموذجاً آخر فيه نوع من التفصيل ، والتنويع ، والسكون الجليل .

قال تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصُّور فصعق منْ فى السماوات ومنْ فى الأرض إلا ماشاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربِّها ، ووُضع الكتابُ ، وجىء بالنبيين والشهداء وقُضى بينهم بالحق وهم لايظلمون . ووفّيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون .** ﴾

﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءُوها فُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رُسُل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاءَ يومكم هذا . قالوا بلى ولكن حقَّت كلمة العذاب على**

(١٥) قال الإمام الفخر في التفسير الكبير : لا يدعون إلى السجود تعبداً وتكليفاً ولكن توبيخاً وتعنيفا على تركهم السجود في الدنيا .. فتزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه .. وهم سالمو الأطراف والمفاصل : صفوة التفاسير جـ٣ .

الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . ﴾

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنّة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالو الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجرُ العاملين . ﴾

﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربّهم وقُضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله ربّ العالمين ﴾[١٦]

المشهد الذى أمامنا طويل وممتد ، يعرض عرضاً سردياً ويتضمن الشكل القصصى فى إطاره العام الخارجى .. ويكتنفه حوار يكشف عن طبيعة الجماعة ونوعيتها ، ويتخلله وصف لجزئيات الصورة الوصفية القصصية ... يبدأ المشهد بالحركة الأولى من متواليات الحركة العامة .

فثمة نفخة فى الصور ، قام بأدائها اسرافيل عليه السلام .. نفخة قوية صاعقة ، تصعق فى لحظة كل الأحياء من أهل السموات والأرض ، نفخة تذكرنا بالصواعق الطبيعية ، ذات الشحنات الكهربائية العالية ... فتحيل ماتمسه مواتاً .. إنها لحظة زمنية صاعقة تحمل شحنة الموت فى سرعة قاتلة .. ويخر كل منْ فى السماوات والأرض .. وينتهى كل شىء إلا من أردا الله ، كحملة عرشه .. ثم يعم السكون ، ويتسيَّد الموت مساحة المشهد اللانهائية .. وتذوب الحركة الأولى فى مسام الموت وتتلاشى ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت . ثم تعود الحركة من جديد إلى دويها المفزع .. تعلو وتشتد ، ولكن النفخة هنا تتضاد مع النفخة الأولى إنها نفخة

---

(١٦) الزمر ٦٨ ــ ٧٥ .

الإحياء .. صيحة البعث والنشور .. ولقد أفاد حرف العطف « ثُم » التراخى الزمنى الطويل .. مابين الموت والإحياء ... وبعد النفخة فإذا الخلائق الأموات يقومون من قبورهم ينظرون .. يقلبون أنظارهم فى الجهات المحيطة ، نظر المبهوت إذا فاجأه خطب[١٧] . إنهم يبدون فى قيامهم وقوفا فى مكانهم جامدين من الحيرة التى تعترى الخلائق .

ثم تضىء أرض المحشر بنور الله يوم القيامة ، حين يتجلى الحق للقضاء بين العباد . هاهى أرض الساحة ، يتم فيها استعراض من العبا . والنور الإلهى يغمر المكان .. إن الحق والعدل والميزان قبساتٌ من نور الله ، تضفى على المساحة جمالاً وروعة .. ولعلنا نلاحظ روعة الأداء التصويرى فى الآية « وأشرقت الأرض بنور ربها » فالاشراق فضلا على أنه يوحى بالانبثاق النورانى ، إلا أن المفردة تحمل قدراً كبيراً من الفرحة والامتلاء .. وكأنما الأرض ترفل فى نور يتجلى ، وإحساسها بالفرحة مكتمل .. وكيف لاتمتلىء بالإحساس ؟! وجاء التركيب اللغوى عن طريق الإضافة تشريفا وتكريما .

(وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله ، وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولاترى أزْين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه ، وفى هذه الإضافة أنّ ربها وخالقها هو الذى يعدل فيها[١٨])

ثم أُحْضرت صحائفُ أعمال العباد للحساب ، وجىء بالنبيين والشهداء ليقولوا كلمة الحق التى يعلمون ، وقُضى بين العباد جميعا بالقسط والعدل ، لا يظلمون شيئاً من أعمالهم لابنقص ثوبا ولا بزيادة عقاب ، وجوزى كل انسان بما عمل من خير أو شر ، والله تعالى أعلم بما عمل

(١٧) الكشاف جـ٣ ٣٥٧ .

(١٨) الكشاف ٣٥٧ . وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم .

العباد . (فلا حاجة إلى كلمة واحدة تقال ، ولا إلى صوت واحد يرتفع ، وهكذا تُحملُ هنا عملية الحساب والجزاء ، لأن المقام هنا مقام روعة وجلال[١٩] ... لقد طُوى كل خصام وجدال فى هذا المشهد تنسيقا لجوه مع الجلال والخشوع الذى يسُود الموقف العام[٢٠]

ونأتى إلى التشكيل الثانى للّوحة .

إنه التشكيل التابع للحركة الثانية حركة الإحياء والبعث ووَضْع الكتاب ومن ثَمّ تصنيف العباد . فالصنف الأول هم الكفرة المجرمون ، الذين يُسَاقون إلى جهنم جماعات جماعات .. كما يساق القطيع ، ولنلاحظ هذا الملمح الجمالى فى حركة الدَّفع .. ولنسْتدع بالخيال صورة القطيع يهشه الراعى بعصاه ويدفعه دفعاً إلى مبتغاه .. والقطيع فى الحيوان يقوده ، حيوان من جنسه يتميز بالقوة والجسامة ، والباق يتبعونه فى خطاه .. والراعى يلملم القطيع ويحدد اتجاهه .. تلك صورة متخيلة .. تفرض التجسيم الحسى .. وتوحى بافتقاد الفعل وضياع الرشد .. فهؤلاء الكفرة حين ألغوا العقل ، واتبعوا قادة الكفر ولم يستمعوا لنداء الحق يشبهون فى حركتهم ، صورة القطيع .. ومن ثم يحدث التبرؤ الذى ذكرته الآيات فى سور أخرى .. تبرؤ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا .. هذا القطيع وقد عرف مصيره وعقابه ، يذهب إلى مثواه الأخير حيث تتفتح أبواب جهنم لتستقبلهم .. وهناك يسجل خزنة النار استحقاق الكفرة للنار . كما يذكرونهم بما جاء بهم إليها .. وفى حوار يدور بين قادر ومُذْعِن مستسلم .. ويكشف الحوار عن طبيعة الكفرة ونوعية السّمات التى ارتسكوا فيها .. يقول الخزنة وقد رأوا جماعات الكفر تتوالى ، فى تساؤل يتسم بالتقريع والتوبيخ ..

---

(١٩) مشاهد القيامة في القرآن ص ١٧٠ .

(٢٠) الظلال حـ٥ ٣٠٦٢ .

– ألم يأتكم الرسلُ يتلون عليكم الكتب ؟
ويقف القوم جامدين ، ذاهلين ، لايستطيعون حراكاً ، ويتابع الخزنة الحوار ..
– ألم يخوفوكم من شر هذا الموقف العصيب ؟..
ولايجد القوم فى مثل هذا الموقف المخزى المستسلم ، الذليل إلا أن يجيبوا .. قائلين
– بلى .. جاءتنا الرسل ، وتلو علينا ماجاءوا به ، وحذرونا ، وأنذرونا .. وأقاموا علينا الحجيج ، ولكنا عاندنا وكذبنا فحق علينا العذاب ..

الإجابة إذعان كامل ... وطبيعة الحوار لاتحتمل الجدل أو المخاصمة ، وإنما هو حوار يهدف إلى تسجيل اعتراف الكفرة بجرمهم .. فى حالة إذعان تتضح بالتسليم ، كما يوضح الدور الذى قام به الرسل واعترف به القوم ، وقد كانوا من قبل معاندين .. والحوار فى معناه العميق يرسم لنا صورة متقابلة بين موقف الكفرة فى الحياة وموقفهم بعد البعث .. فيجمع الحوار ما بين الماضى البعيد والحاضر الماثل فى آن واحد حتى يكون الدليل ناصعاً دامغاً . وكأن الماضى أثناء الحوار يتردّد كالصدى فى أرجاء الساحة فيزيدهم ذلة وخسة ..

ويأتى الأمر بدخول هؤلاء المتكبرين جهنم خالدين فيها .. ويظل صدى كبرهم وعنادهم يتردد ﴿**أئذا مِتْنا وكُنَّا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون . أوَ آباؤنا الأولون .**﴾[٢١] .. ويصبح اعترافهم إدانة منهم لأنفسهم .

أما موكب المؤمنين الذين اتقوا ربهم فيأتون فى تكريم إلى الجنة جماعات جماعات ، والفرح يغمرهم ، حتّى إذا وصلوا إليها استقبلهم خزنتها بالبشر

---

(٢١) الواقعة ٤٧ — ٤٨ .

والترحاب قائلين فى تودد ومحبّة : سلام عليكم أيها المتقون لقد طِبتم نَفْساً وتطهرتُم قلْبا ، فاستحققتم الجنة ثوابا ، فادخلوها خالدين .. وعلت أصوات المؤمنين ، فى شكر وحمد يليق بالمقام : الحمد لله الذى تحقق الوعد بالجنة .. هنا مشهد تكريم ، ومحبة ، وفرح ،.. تتردَّد فى جنباته أصواتٌ رطبة ندية الوجوه نضرة ، والوعد فى الماضى البعيد يتحقق ماثلاً .. فما أروع الصدق ! وما أبهج ثماره !

ونقف عند لفظين لهما دلالتهما فى الموقفين . اللفظ الأول : (سِيق) .. فلقد ورد فى كلا الموقفين ، ولكن وروده جاء مصحوباً بدلالة مغايرة . **ففى الأول** : يعنى الطرد والهوان والذلة .. **وفى الثانى** التكريم والتبجيل .

قال الزمخشرى : المراد بسَوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنفُ كما يُفْعَلُ بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حَبْسٍ أو طرد . والمراد بسَوْق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يُذْهب بهم إلا راكبين ، وحثّها إسْراعاً بهم إلى دار الكرامة والرّضوان .. فشتّان مابيْن السَّوقين)[٢٢]
اللفظ الثانى : (طِبْتُمْ) :
واللفظ يعنى الطهارة من الدنس .. فبيَّن اللفظ سبب الدخول إلى الجنة حيث إنها دار للطيبين الأطهار ، فهى دار طهّرها الله من كل دنس ، وطيبها من كل خبث ، فناسب اللفظ المكان .. وناسبت الصفة الموصوف .

ويأتى ختام المشهد جليلا ..
إنه يلقى فى النفوس الروعة والرهبة والجلال .. وهى صفات تتسق مع المشهد .. (فالوجود يتجه إلى ربه بالحمد ، فى خشوع واستسلام وكلمة

---

(٢٢) الكشاف جـ٣ ص ٣٥٨ .

الحمد ينطق بها كل حى وكل موجود فى استسلام ...)[٢٣] فالملائكة يحيطون بعرش الرحمن ، محدقين به من كل جانب ، يسبحون الله ويمجدونه تلذذا ، وقُضِى بين العباد بالحق ، وحمد الجميع ربهم على فضله وعدله ..

(قال ابن كثير : نطق الكون كله أجمعه لله رب العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ولهذا لم يسْند القول إلى قائل ، بل أطلقه على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد)[٢٤]

هذا المشهد الجليل أحد مشاهد القيامة فى القرآن الكريم والمشاهد من أوسع أبواب الفن ومن أكثرها وروداً . وهى مادة غنيَّة بالتنوع والحركة والجمال النفسى والحسى فى إطار من السكون والجلال . مما يمكن معه أن يستقى منها أعمال فنية مترعة بالفن والفكر معا .

---

(٢٣) الظلال جـ٥ ص ٣٠٦٣ .

(٢٤) مختصر ابن كثير جـ٣ ٢٣٣ .

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

صدر من هذه السلسلة

١ ـ تأملات في سورة الفاتحة	الدكتور حسن باجودة
٢ ـ الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣ ـ الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين	الأستاذ نذير حمدان
٤ ـ الاسلام الفاتح	الدكتور حسين مؤنس
٥ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكري	الدكتور حسان محمد مرزوق
٦ ـ السيرة النبوية في القرآن	الدكتور عبد الصبور مرزوق
٧ ـ التخطيط للدعوة الاسلامية	الدكتور محمد علي جريشة
٨ ـ صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية	الدكتور أحمد السيد دراج
٩ ـ التوعية الشاملة في الحج	الأستاذ عبد الله بوقس
١٠ ـ الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره	الدكتور عباس حسن محمد
١١ ـ لمحات نفسية في القرآن الكريم	د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢ ـ السنة في مواجهة الأباطيل	الأستاذ محمد طاهر حكيم
١٣ ـ مولود على الفطرة	الأستاذ حسين أحمد حسون
١٤ ـ دور المسجد في الاسلام	الأستاذ محمد علي مختار
١٥ ـ تاريخ القرآن الكريم	الدكتور محمد سالم محيسن
١٦ ـ البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام	الأستاذ محمد محمود فرغلي
١٧ ـ حقوق المرأة في الاسلام	الدكتور محمد الصادق عفيفي
١٨ ـ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١]	الأستاذ أحمد محمد جمال
١٩ ـ القراءات أحكامها ومصادرها	الدكتور شعبان محمد اسماعيل
٢٠ ـ المعاملات في الشريعة الاسلامية	الدكتور عبد الستار السعيد
٢١ ـ الزكاة فلسفتها وأحكامها	الدكتور علي محمد العماري
٢٢ ـ حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم	الدكتور أبو اليزيد العجمي
٢٣ ـ الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٢٤ ـ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	الدكتور عدنان محمد وزان
٢٥ ـ الاسلام والحركات الهدامة	معالي عبد الحميد حمودة
٢٦ ـ تربية النشء في ظل الاسلام	الدكتور محمد محمود عمارة
٢٧ ـ مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي	الدكتور محمد شوقي الفنجري
٢٨ ـ وحي الله	الدكتور حسن ضياء الدين عتر
٢٩ ـ حقوق الانسان وواجباته في القرآن	حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠ ـ المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	الأستاذ محمد عمر القصار
٣١ ـ القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	الأستاذ أحمد محمد جمال

الرقم	العنوان	المؤلف
٦٧	العدل والتسامح الاسلامي	الأستاذ احمد المخرنجي
٦٨	القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	الأستاذ احمد محمد جمال
٦٩	الحريات والحقوق الاسلامية	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠	الانسان الروح والعقل والنفس	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١	كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية	الدكتور شوقي بشير
٧٢	الاسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣	تأملات قرآنية	الدكتورة عصمة الدين كركر
٧٤	الماسونية سرطان الأمم	الأستاذ ابو إسلام احمد عبد الله
٧٥	المرأة بين الجاهلية والاسلام	الأستاذ سعد صادق محمد
٧٦	استخلاف آدم عليه السلام	الدكتور علي محمد نصر
٧٧	نظرات في قصص القرآن [٢]	محمد قطب عبد العال
٧٨	لماذ وكيف أسلمت [٢]	الشهيد احمد سامي عبد الله
٧٩	كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	الأستاذ سراج محمد وزان
٨٠	الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ ابو الحسن الندوي
٨١	كيف بدأ الخلق	الأستاذ عيسى العرباوي
٨٢	خطوات على طريق الدعوة	الأستاذ أحمد محمد جمال
٨٣	المرأة المسلمة بين نظرتين	الأستاذ صالح محمد جمال
٨٤	المبادىء الاجتماعية في الاسلام	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٨٥	التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام	د. ابراهيم حمدان علي
٨٦	الحقوق المتقابلة	د. عبد الله محمد سعيد
٨٧	من حديث القرآن عن الانسان	د. علي محمد حسن العماري
٨٨	نور من القرآن فى طريق الدعوة والدعاة	د. محمد الحسين ابو سم
٨٩	أسلوب جديد في حرب الاسلام	جمعان عايض الزهراني
٩٠	القضاء في الاسلام	سليمان محمد العيضي
٩١	دولة الباطل في فلسطين	الشيخ القاضي محمد سويد
٩٢	المنظور الاسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل	د. حلمي عبد المنعم جابر
٩٣	التهجير الصيني في تركستان الشرقية	رحمة الله رحمتي
٩٤	الفطرة وقيمة العمل في الاسلام	اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
٩٥	أوصيكم بالشباب خيراً	الأستاذ أحمد محمد جمال
٩٦	المسلمون في دوائر النسيان	اسماء ابو بكر محمد
٩٧	من خصائص الاعلام الاسلامي	محمد خير رمضان يوسف
٩٨	الحرية الاقتصادية في الاسلام	د. محمود محمد بابللي

٣٢ــ	الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج	الدكتور السيد رزق الطويل
٣٣ــ	الاعلام في المجتمع الاسلامي	الأستاذ حامد عبد الواحد
٣٤ــ	الالتزام الديني منهج وسط	عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
٣٥ــ	التربية النفسية في المنهج الاسلامي	الدكتور حسن الشرقاوي
٣٦ــ	الاسلام والعلاقات الدولية	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٣٧ــ	العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية	اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨ــ	معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها	الدكتور محمود محمد بابللي
٣٩ــ	النهج الحديث في مختصر علوم الحديث	الدكتور علي محمد نصر
٤٠ــ	من التراث الاقتصادي للمسلمين	الدكتور محمد رفعت العوضي
٤١ــ	المفاهيم الاقتصادية في الاسلام	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢ــ	الأقليات المسلمة في أفريقيا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٣ــ	الأقليات المسلمة في أوروبا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٤ــ	الأقليات المسلمة في الأمريكتين	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٥ــ	الطريق إلى النصر	الأستاذ محمد عبد الله فودة
٤٦ــ	الاسلام دعوة حق	الدكتور السيد رزق الطويل
٤٧ــ	الاسلام والنظر في آيات الله الكونية	د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨ــ	دحض مفتريات	د. البدراوي عبد الوهاب زهران
٤٩ــ	المجاهدون في فطاني	الأستاذ محمد ضياء شهاب
٥٠ــ	معجزة خلق الانسان	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١ــ	مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية	الدكتور سيد عبد الحميد مرسي
٥٢ــ	ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي	الأستاذ أنور الجندي
٥٣ــ	الشورى سلوك والتزام	الدكتور محمد أحمد البابلي
٥٤ــ	الصبر في ضوء الكتاب والسنة	أسماء عمر فدعق
٥٥ــ	مدخل إلى تحصين الأمة	الدكتور أحمد محمد الخراط
٥٦ــ	القرآن كتاب أحكمت آياته [٣]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٥٧ــ	كيف تكون خطيباً	الشيخ عبد الرحمن خلف
٥٨ــ	الزواج بغير المسلمين	الشيخ حسن خالد
٥٩ــ	نظرات في قصص القرآن	محمد قطب عبد العال
٦٠ــ	اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات	الدكتور السيد رزق الطويل
٦١ــ	بين علم آدم والعلم الحديث	الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
٦٢ــ	المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٦٣ــ	من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	الدكتور رفعت العوضي
٦٤ــ	تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥ــ	لماذا وكيف أسلمت [١]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦ــ	أصلح الأديان عقيدة وشريعة	الأستاذ عبد الغفور عطار